

٢٧٦٢

مشاهير العرب

٥

أبو تمام الخزازي



محمد عبد الغني حسن

دار المعارف

أبو تمام الخزازي

مشاهير العرب

⑤

أبو تمام الخراساني

بقلم

محمد عبد الغني حسن

الطبعة السادسة



دار المعارف

دعوة سرية

في سنة ١٠٠ من الهجرة ، بينما كان القرن الأول يدنو من الانتهاء قليلا قليلا ليدخل العالم في بداية قرن جديد ، كانت الدنيا تشهد ميلاد طفل اسمه « إبراهيم بن عثمان بن يسار » . وكان مولد الطفل في قرية من قرى أصبهان اسمها « ماه البصرة » ، وهي بالطبع غير مدينة البصرة الواقعة على مصب دجلة والفرات .

واستقبل الطفل الحياة كما يستقبلها آلاف الآلاف من المواليد كل يوم ، وكل ساعة من نهار ، وكل لحظة من ليل . لم يدر به أحد إلا أمه التي ولدته ، وإلا أبوه الذي أنجبه . وإلا تلك الحفنة القليلة أو الكثيرة من الأهل والأصدقاء والجيران .

لم يتمتع الطفل طويلا بالحياة في كنف والديه . فماتت أمه وهو صغير ، ومات أبوه وهو في بضع سنين من عمره ، وكان أوصى به إلى رجل من أهل اليسار أو صديق من أهل الجاه اسمه عيسى بن السراج . فحمله هذا إلى الكوفة وهو ابن سبع ، ومن هنا كانت نشأته في تلك لعاصمة الإسلامية التي اشتهرت بكونها من منابع الدولة العباسية التي نامت على أنقاض دولة بني أمية .

وأخذ الوليد يدرج وينشأ في الكوفة . وكانت تشتهر بأنها مركز من

مراكز التشيع لأهل البيت . وكان أهلها يعطفون على أهل رسول الله عطفاً شديداً ، ويرون أنهم أحق بالخلافة من الأمويين ، وأنهم قوم غلبوا على أمرهم .

وكانت فكرة التشيع لأهل البيت تنتشر قليلاً قليلاً ، وخاصة في أرض الكوفة وما حوالها ، وفي أجزاء من العراق ، وفي بقاع من خراسان ، إلا أنها كانت مطبوعة بطابع السرية والخفاء ، مخافة أن يظهر أمرها لرجال بني أمية وولاتهم وعمالهم على الأقاليم فيقصدها أصحابها بسوء .

وأهل البيت قسمان كبيران : العباسيون وهم أبناء علي بن عبد الله بن عباس عم النبي عليه السلام ، والطلبيةون ، وهم أبناء علي بن أبي طالب ، وأبو طالب هو أحد أعمام النبي . وبهذا يلتقي العباسيون والطلبيةون في عمومة الرسول عليه السلام .

واقترن مولد الوليد إبراهيم بن عثمان بن يسار بمولد الدعوة السرية لتأسيس الدولة العباسية . فكأنما كان ميلاده معها على ميعاد . فنذ سنة ١٠٠ هجرية وأرض الكوفة وما حوالها تشهد جماعة من الرسل متكررين في أزياء الحجاج ، وملابس التجار ، وبعضهم يمر بالكوفة ، ثم يعرج منها إلى قرية صغيرة يقال لها « الحميمة » .

وفي هذه القرية الصغيرة الهادئة التي يخيم عليها صمت عميق ، كأنها تحمل سرّاً من الأسرار لم تبج به لإنسان ، كان يقيم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، حيث أكرمه بنو أمية وأكروهوا أباه من قبل على

البقاء فيها بعيداً عن معترك الحياة اتقاء لخروجه عليهم ، وأمناً لدعوته ضدهم . وكأنهم ضمنوا في هذا المنفى البعيد أن لا يخرج على دولتهم خارج ، أو يثور عليهم من أهل البيت نائر .

وقد خاب تدبير بني أمية حين ضيقوا الخناق على بني العباس في الكوفة وما حوالها ، فقد كتم أبناء العباس دعوتهم السرية كتماناً شديداً ، وأحاطوها من أسباب الخفاء بما يضمن نجاحها واتساعها . وبلغوا من البراعة في ذلك مبلغاً عظيماً . حتى كان زعيمهم محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس مبالغاً شديد الحذر في أمر الدعوة ، حتى لا ينكشف أمرها ، ولا ينفصح سرها . وكان يرى أن انتقال الخلافة من بيت إلى بيت ، ومن يد إلى يد ، لا يجيء طفرة ولا مفاجأة ، وإنما لا بد له من الاستعداد المحكم ، والتدبير المبرم ، والروية المصحوبة بالحزم ، والأناة مع اليقظة ، وإلا تعرضت الدعوة للفشل ، وباءت وباء أصحابها بالخسران . .

ومضت الدعوة العباسية في سريتها التامة ، وفي تكتمها البالغ الشديد منذ قيامها سرّاً سنة ١٠٠ هـ إلى سنة ١١٧ هـ ، وهنا كان الوليد إبراهيم ابن عثمان بن يسار قد بلغت سنه سبعة عشر عاماً ، لأنه ولد في مطلع القرن الثاني كما قلنا ، وكان الخليفة الأموي الجالس على كرسي الخلافة في دمشق هو الرجل الطيب الزاهد ، والمسلم المثالي الصالح ، والحاكم العادل : عمر بن عبد العزيز .

في هذه السنة - أي سنة ١١٧ هـ - جمع محمد بن علي بن عبد الله

ابن عباس جماعة من دعائه الذين أراد توجيههم إلى الأمصار ليقوموا
 بنشر الدعوة . وكان لابد له أن يعرفهم بحالة كل قطر ومباغ تعصبه
 للعباسيين أو تعصبه ضدهم . وهو رجل كان فيه كثير من الذكاء والدهاء .
 فقد بايع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بعد أن دانت له الأقاليم
 الإسلامية . واستتب له السلطان ، وذلك مداراة له واتقاء لشره .
 ولكنه في الوقت نفسه بدأ الدعوة السرية ، وألف الدعاة ، وكنم اسم
 الرجل العباسي الذي يدعون له مخافة أن يصاب بسوء . ولم يعرف اسم
 الخليفة العباسي الذي يدعون إليه إلا نقباء الدعوة السرية وعددهم
 اثنا عشر نقيباً .

وفي لياة ساجية من ليالى الصيف في قرية « الحميدة » انتهر محمد
 ابن علي بن عبد الله بن عباس غفلة من الرقباء ، وغفوة من العيون .
 فجمع نقباءه الاثني عشر . وهم سليمان بن كثير ، ومالك بن الهيثم ،
 وطلحة بن زريق ، وعمرو بن أعين ، وعيسى بن أعين ، وقحطبة بن
 شبيب . ولاهز بن قريظ . وموسى بن كعب ، والقاسم بن مجاشع ،
 وخالد بن إبراهيم ، وأبو علي الهروي ، وعمران بن إسماعيل ، وأخذ
 يتبادل معهم وجوه الرأي في الدعوة ، ويدرس معهم حالة الأمصار ،
 فكان مما قاله لهم : (أما الكوفة وسوادها فشيعة عليّ وولده ، وأما البصرة
 وسوادها فعثمانية تدين بالكف . تقول : كن عبد الله المقتول ، ولا تكن
 عبد الله القتال . وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، وأعراب كأعلاج ،

ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل
 أبي سفيان ، وطاعة بني مروان ، وفيهم عداوة راسخة وجهل متراكم ،
 وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبوبكر وعمر . . ولكن عليكم بخراسان ،
 فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب
 فارغة . لم تنقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل ، وهم جند لهم أبدان
 وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى ، وشوارب ، وأصوات
 هائلة ، ولغات فيخمة ، تخرج من أجواف منكرة . .) .

أمير خراسان

استمر الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في دعوته السرية ، ثم تحولت إلى دعوة علنية للرضا من أهل البيت النبوي الكريم ، ولم تكن هذه الدعوة أول أمرها مصحوبة بالعنف أو القوة ، وإنما كانت دعوة قوامها الكلام ، وكان العيون والجواسيس يترصدون القوم في كل مكان ، حتى في خراسان ، التي كانت مركزاً قوياً حصيناً من مراكز الدعوة العباسية ، وكان أمير خراسان من قبل البيت الأموي رجلاً قوى الشكيمة . شديد البأس اسمه « أسد بن عبد الله القسري » وقد ترامت إليه أنباء هذه الدعوة المتفرقة في شعاب الأرض من خراسان ، فأمر بجمع من تقدر الشرطة عليه من هؤلاء الدعاة ، فلما كانوا بين يديه أمر بأيديهم وأرجلهم أن تقطع ، وأن يصلبوا . ولكن هذه القسوة لم تثن القوم عن طريقهم ، ولم ترهبهم عن المضي في دعوتهم ، بل ازدادوا صلابة واستمسكاً ، إلى أن ظفر بجماعة جديدة منهم ، فيهم سليمان بن كثير — شيخ الدعوة — ومالك بن الهيثم ، وموسى بن كعب ، وطلحة بن زريق وغيرهم ، فأمر بهم أن يقفوا بين يديه ، فوجه الكلام إليهم قائلاً :

— يافسقة ! ألم يقل الله : عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام ؟

فقال شيخهم سليمان بن كثير :
 — أأتكلم أم أسكت أيها الأمير ؟
 قال : تكلم !

وأخذ الشيخ يتكلم بكلام فيه كثير من الدهاء وحسن التخلص ،
 فقد حاول أن يبرئ نفسه من تهمة هذه الدعوة ، وتوسل إليه بما بينهما من
 عصبية النسب القحطاني ، فالأمير القسري من اليمن ، وهؤلاء الدعاة
 من اليمن . وإنما الذين وشوا بهم جماعة من المضرية — أى العدنانية —
 قصدوا من هذه الوشاية الثأر لهم من موقف اتخذته اليمانية من القائد
 قتيبة بن مسلم . . .

وبهذا الجواب المحكم السديد ، وبهذه الروح العصبية بين القبائل
 تخلص هؤلاء النقباء في موقف خرج من خطر كان محدقاً بهم . . .
 وفي خلال هذه الأحداث كان الفتي إبراهيم بن عثمان بن يسار قد
 بلغ مبلغ الشباب قبل العشرين بقليل ، وكان مولاه عيسى قد باعه إلى
 شيخ من شيوخ الشيعة بالكوفة اسمه بكير بن ماهان ، ثم أسلمه بكير إلى
 الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، حيث انتقل إلى وصاية
 الإمام إبراهيم بن محمد الذي كان إمام الدعوة العباسية في قرية « الحميمة »
 بعد وفاة أبيه .

وهنا نجد الإمام إبراهيم يثق في الشاب ثقة لا حد لها ، ويتوسم فيه
 من علامات الرأي والتدبير ، والعقل والتصميم ، ما يجعله يلقي عليه عبء
 الدعوة في خراسان ، فيدعوه إليه قائلاً :

— من اليوم لم يعد اسمك ابن يسار كما يدعوك القوم ، ولا ابن أسفنديار كما يقال عنك .. وإنما اسمك عبد الرحمن بن مسلم ، وستكنى بأبي مسلم !

ومنذ هذه اللحظة اختفى كل اسم قديم كان يحملُه هذا الشاب الجريء النجيب ، ولم يبق له إلا اسم واحد : هو أبو مسلم الخراساني ..

* * *

كأنما كان اختيار أبي مسلم الخراساني من قبل الإمام إبراهيم بن محمد أميراً على خراسان اختياراً أدركته العناية الإلهية حين تهيء لكل شيء الأسباب ...

فقد كانت خراسان تموج بالفتن والثورات بين أصحاب العصبية ، وخاصة أهل اليمن ، وأهل نزار بن عدنان . وكان النزارية أنفسهم منقسمين بعضهم على بعض . فهناك ربيعة في جانب وعلى رأسهم شيبان الخروزي الخارج على الدولة الأموية ، وهناك مضر في جانب آخر ، وعلى رأسهم نصر بن سيار وهو والي خراسان من قبل الأمويين . أما اليمانية فكان على رأسهم « الكرمانى » وهو عربى قحطانى ولد بكرمان من أرض العجم فنسب إليها .

فلم لا يستفيد الشاب الداهية أبو مسلم الخراساني من هذه الظروف الملائمة والفرص المواتمة ، ويضرب هذه الأحزاب بعضها ببعض ، ليأكلها جميعاً ، ويكون له الأمر من دونها جميعاً ؟

السواد شعار العباسيين

سارت الأمور منذ سرية الدعوة العباسية سنة ١٠٠ هـ إلى سنة ١٢٩ هـ سيراً وثيداً متزناً مصحوباً بالحدزر والحرص كما أراد لها الأئمة من أهل البيت ، وكان قيام الفتن والثورات في خراسان وفي غير خراسان ، كما كانت بؤادر الضعف والتفكك في البيت الأموي ، عاملاً مهماً في سير الدعوة العباسية قدماً إلى طريق النجاح .

وفي رمضان سنة ١٢٩ هـ ، بل وفي أول يوم من ذلك الشهر الذي يمثل مجاهدة النفس في الإسلام دخل أبو مسلم أرض خراسان ، وقد أظهر الدعوة وجاهر بها ، بعد أن لم يكن هناك بد من المجاهرة . فخراسان مشغولة بالقتال بين ثلاث طوائف ، وأميرها الأموي نصر بن سيار مشغول بقتال الكرمانى وشيبان الحرورى معاً ، وبلغ من قوة شيبان أنه دعا لنفسه بالخلافة ، متحدياً خلافة الأمويين القائمة ، ومتحدياً دعوة العباسيين إلى الخلافة . وكان أصحابه يقفون بين يديه ، ويسلمون عليه كما يسلم على الخلفاء ؛

وهنا نرى شعاب خراسان تمتلئ بالوافدين على أبى مسلم الخراسانى معلنة الدخول في حوزته ، والانضمام إلى رايته .

وفي قرية صغيرة من قرى « مرو » يقال لها « سفيدنج » نزل

أبو مسلم ، ومنها بدأ دعوته ، وأخذ يتنقل بين قرى خراسان ، حتى انضم إليه في يوم واحد أهل ستين قرية .

وكان الناس يتهايمسون قبل ذلك بالدعوة العباسية ، والآن لم يعد هناك حاجة إلى الهمس . فكان الرجل يلتقي أخاه فيدعوه جهراً إلى العباسيين ، ويخلع من رقبته طاعة الأمويين .

واجتمع من أهل القرى خلق كثير ، فرفع أبو مسلم رايتين على رحين طويلين ، طول أحدهما أربع عشرة ذراعاً ، وطول ثانيهما ثلاث عشرة ذراعاً . وكانت الرايتان مما بعثه إليه الإمام إبراهيم ، واسم الأولى « الظل » ، واسم الثانية « السحاب » .

وفي وسط الجموع الزاخرة المتدفقة خلف اللواء الأسود ، والراية السوداء ، مال أحد الخراسانيين على صاحبه سائلاً :
— لماذا هذا اللون الأسود الذي اتخذت منه الرايتان ؟

— إن هذا اللون شعار العباسيين ، اتخذوه تمييزاً لهم من الأمويين .
— إذا كانوا اختاروا السواد لراياتهم وألويتهم لما ذكرت ، فلم اتخذوه في لباسهم ؟

— إنهم يا أخى يتشبهون بالنبي عليه السلام حين دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه عمامة سوداء ، فجعلوا السواد شعارهم في الأعياد والجمع والمحافل . واستمر الجمع يتزايد ويتدافع ، وأبو مسلم في المقدمة ، وهو يتلو قوله تعالى :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير) .
 ووجد أبو مسلم في قرية سفيدنج مكاناً حصيناً يتحصن به إذا
 ما هاجمه أحد خصومه الثلاثة من الأمويين والحروريين وأنصار
 الكرمانى ، فأمر بترميم الحصن وتقوية أسواره ، وتدعيم جدرانها . وظل
 معتصماً به أسابيع من شهر رمضان . ولما جاء عيد الفطر دعا الشيخ
 سليمان بن كثير لى يصلى به وبمن معه من الشيعة والأنصار ، وأقام له
 منبراً فى العسكر .

وصلى ابن كثير صلاة العيد بغير أذان ولا إقامة ، ثم خطب بعد
 الصلاة . فكان ذلك على غير ما كان يفعله بنو أمية من البدء بالخطبة
 ثم الإقامة للصلاة كصلاة يوم الجمعة . وكبر المصلون لركعتي العيد على
 غير ما كان يفعل بنو أمية . فاستبشر الناس وأيقنوا أنهم منذ ذلك اليوم
 دخلوا فى عهد جديد .

وانصرف الناس من صلاة العيد ، وقد أعد لهم أبو مسلم طعاماً ،
 فأكلوا منه هنيئاً ، وأخذوا يتبادلون عبارات التهاني . وهنا سمع صوت
 فى المعسكر يقول : خلوا « السحاب » و « الظل » مرفوعين . فقال واحد
 من القوم يسأل صاحبه :

- ما السحاب وما الظل اللذان ارتفع باسمهما النداء ؟
- هما اسم اللوائين اللذين تراهما أمامك خافقين فى الهواء .
- وما معنى هذه التسمية ودلالاتها على الأشياء ؟

— إن السحاب كما يطبق جميع الأرض من أرجائها ، كذلك
 بنو العباس تطبق دعوتهم الأرض من أقطارها. وكما أن الأرض لا تخلو من
 الظل ، فكذلك بنو العباس لا تخلو الأرض من قائم منهم . . .
 وكان اللواءان يخفقان ، بينما كان هذا الحوار يأخذ بين الصاحبين
 مجراه . .

نجم يلمع

كان نصر بن سيار هو عامل بنى أمية على خراسان ، وذات يوم كان جالساً في دار الإمارة ، وهو مشغول البال ، مهموم الفكر بهذه الأحداث التي بدأت تظهر في جو الدولة الأموية ، وبينما هو على مقعده من الإمارة يستعد للأمر ، ويأخذ الأهبة لما قد يستجد من الأحداث ، إذا بالحاجب يدخل عليه يبلغه أن رسولا بالباب يحمل كتاباً يريد توصيله إليه . فقال له نصر : دعه يدخل ؟

ودخل الرسول وفي يده الكتاب ، وهو ثابت الخطأ ، ثابت الجنان ، كأنه ليس بحضرة عامل الخليفة الأموي وواليه على خراسان . فقال نصر :

- من الذي بعثك بهذا الكتاب ؟
- بعثني به مولاي أبو مسلم الخراساني ؟
- ومن هو أبو مسلم هذا ؟
- ليس قولك من هذا بضائره ! إنه أمير خراسان من قبل الإمام الرضا من أهل البيت ، وهم أولى الناس بالخلافة ، وأحقهم بالطاعة .
- يظهر أن الخراسانية قد جرأتكم على مقامات الكبراء ! اخرج أيها الجبان ! فلولاً أن الله تعالى يقول : « ما على الرسول إلا البلاغ » .

لكان لى معك شأن غير هذا الشأن . . .

وخرج الرسول ، وفض الأمير نصر بن سيار أغلاق الكتاب فإذا فيه :
 (من أبى مسلم الخراسانى إلى نصر بن سيار : أما بعد . فإن الله
 غير أقواماً فى كتابه فقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير
 ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ،
 استكباراً فى الأرض ومكر السيئ ، ولا يحقيق المكر السيئ إلا بأهله ») .
 فرغ نصر من قراءة الكتاب ، ولم يكن غير آيات من القرآن الكريم
 فيها إنذار وفيها وعيد . ولكن نصراً لم يعظمه هذا أكثر مما أعظمه أن يقدم
 أبو مسلم اسمه على اسمه . . وللعرب حساسية فى هذه الأمور التى تحمل
 دلالاتها الخفية . . فأطال الفكر مرة ومرة فى هذه الرسالة الجريئة وقال :
 — هذا كتاب له جواب . . .

لم يسكت نصر بن سيار على هذا الحادث وما سبقه وما أحاط به
 من أحداث ، وأيقن أن كرامة الدولة الأموية وسلطانها تقتضى محاربة
 هذا الشر الناجم قبل أن يستشرى . وعلى الفور أرسل أبو مسلم الخراسانى
 إلى مالك بن الهيثم الخزاعى يستدعيه فحضر لساعته ، ودار بينهما الحوار
 التالى :

— يا مالك ! لم يعد مفر من سل السيوف وملاقاة الحتوف ، فقد
 انقضى عهد سرية الدعوة العباسية ، ودخلنا الآن فى مرحلة العمل العلنى .

— أنا معك يا مولاى ، وسيوفنا كلها مستعدة للدفاع عن آل رسول الله .
 — إن الموقعة التى أعدك لها تحتاج إلى الفرسان الشجعان ، ممن
 يركبون الخيل كأنهم ولدوا على صهواتها ، أو كأنها نتجت قياماً تحتهم . . .
 فخذ معك خيلاً عظيمة ، فقد بلغنى أن نصر بن سيار بعث عدداً من
 الخيول لمحاربتنا .

— هل بعث ابن سيار الخيول لمحاربتنا ؟ إن هذا سيكون أول موقف
 يقتتل فيه جند بنى العباس وجند بنى أمية ، ونحن على ثقة بأن الله ناصرنا
 لأننا ندافع عن قضية حق مهضوم ، وبيت مظلوم .
 — امض يا مالك على بركة الله ، والله معك . . .

وخرج مالك بن الهيثم من مجلس أبى مسلم الخراسانى ، وأخذ يجمع
 الفرسان الأشداء من رجاله ، والتقى مع فرسان نصر بن سيار ، فأخذ
 يدعوهم إلى « الرضا » من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعين
 من هو هذا الرضا الذى يدعو إليه . فأبى فرسان نصر بن سيار أن
 يستجيبوا إلى هذه الدعوة . وهنا لم يكن بد من القتال . فاصطف الفريقان
 من أول النهار إلى العصر . وقد بدا من هذا الموقف أن القوتين تكادان
 تكونان متعادلتين ، فبعث مالك بن الهيثم إلى أبى مسلم يطلب منه
 المدد ، فجاء إلى مالك مدد قوى ، كان له أثر فى ترجيح كفة الجند
 العباسى ، فظفروا بنخصومهم من الأمويين .

أخذ نجم أبي مسلم الخراساني يلمع شيئاً فشيئاً
 وأخذ هذا الانتصار الحربى الأول على جند بنى أمية يشد من عزمه ،
 ويقوى من جنانه ، كما أخذ مركزه يقوى عند الإمام إبراهيم صاحب
 الدعوة العباسية الذى استدعى إليه أبا مسلم بقرية « الحميمة » ، فوافاه
 أبو مسلم هناك ، ودخل وسلم عليه تسليم الخلافة ، فأدناه الإمام إبراهيم
 منه وقال له :

— يا أبا مسلم ! إن انتصارك هو انتصار لنا ، وإنى لأرجو أن يقوى
 بك أمر هذه الدعوة . وأرجو لك من الصهر ما يشتد به أزرک ، ويقوى
 به سندك ، فإن الصهر دعامة الرجل وعضادته .

— مولای الإمام ! إن القول لكما ذكرت ، ولكن أنى لى بالصهر
 الذى ألتبس فيه الحماية والرعاية ، وأنا رجل لا أملك من دنياى إلا سبغى
 وعقلى . . . وليس عندى من المال ما أغلى به مهر الحسنة !

— لا تأسَ يا أبا مسلم ! فإنى أعرف لك عروساً فيها الجمال ، وفى
 أبيها الجاه والمترل . . .

— وهل جاء أبيها يا مولای الإمام يعفنى من إمهارها ؟

— اطمئن يا أبا مسلم ! فسأقوم أنا عنك بعبء ذلك ، وسأدفع
 عنك صداقها إلى أبيها . . .

— ومن ذلك الصهر الكريم الذى شرفنى يا مولای باختياره لى ؟

— هو أبو النجم إسماعيل بن عمران الطائى من كبار دعاةنا . وثق

يا أبا مسلم أنه لن يغلى الصداق عليك ! فخذ هذه الدراهم الأربعمائة ،
وقدمها مهراً إلى إسماعيل ، وهو إن شاء الله ستسره خطبتك لابنته . . .
ولم تكن إلا أيام حتى كانت بنت أبي النجم في كنف أبي مسلم ،
زوجة مخلصه وفية ، ليست بعيدة عن أفكار زوجها ، لأنهم جميعاً
تجمعهم روابط الوفاء لآل البيت الكريم .

رجع أبو مسلم إلى خراسان على عجل ، لأن الأحداث لم تكن
تقتضى غيابه عنها طويلاً . فالدعوة الآن جهرية ، والسيوف الآن قد
سُلت من الأغمد ، والأحزاب والشيع تفتضى اليقظة التامة .
ولكنه ما كاد يستقر قليلاً ، حتى وجد شيئاً لم يكن يتوقعه . . وجد
أن بعض أوامره إلى الدعاة في خراسان لا تلقى ما هي جديرة به من
الطاعة والتنفيذ ، فأخذ يدرس ذلك ويتبعه ويتعرف إلى أسبابه ، حتى
جاءه عنه يوماً الخبر اليقين . . .

اصطنع أبو مسلم بعض العيون ممن يثق فيهم ويطمئن إليهم ، وكلفهم
أن يأتوه بأخبار الدعاة ، وماذا يقولون عنه ، وأمنهم لكي يوافوه بكل كلمة
تقال فيه . وفي يوم جاءه أحد هؤلاء العيون ودخل عليه ،
فسأله أبو مسلم :

- كيف حال دعوتنا في خراسان وفي العراق ؟
- إنهم مخلصون في الدعوة ، ومخلصون للإمام .
- وهل يتفق الإخلاص للدعوة والطاعة للإمام من أهل البيت

مع هذا التقاعس الذى يبدو لى من بعضهم ؟

— إنهم أيها الأمير شيوخ كبار ، ولعل من تجاربهم ما يسوغ موقفهم !

— أفصح أيها الوفى ، فما أرسلتك للأغاز والأحاجى ، ولكنى أرسلتك لتخبرنى بحقيقة الحال !

— لقد كنت أيها الأمير عند واحد منهم حين جاءه كتاب منك ، وكان عنده بعض الدعاة . ولم أجدهم يتسارون فى الحديث ، بل وجدت مصارحة بالسخط ، ومعالجة بالغضب .

— وأى سخط أيها الرسول ، ولا أظنى قلت أو فعلت إلا ما فيه مرضاتهم ؟ وهل الكتابة إليهم فى شأن مما كلفت أنا به من شئون الدعوة تغضبهم ؟

— لقد سمعت واحداً منهم يقول : ألم يعد للسن اعتبار عند الإمام ؟

— وماذا كان تعقيب غيره من الحاضرين ؟

— أعفنى أيها الأمير من أن أنقل إليك ما سمعت !

— قل وأنت آمن . . . فناقِل الكفر ليس بكافر ! فإننى أحب أن

أسمع منك كل ما قيل !

— لقد خاضوا فى حديث النسب والمصاهرة ! كما خاضوا فى حديث

صغر السن ، وكل منهم يرى التقدم فى السن أهلاً للتقدم فى المنزلة !

— ومتى كان السن أيها الرسول مانعاً من ارتقاء المناصب ! لا بأس !

لا بأس ، فلا بد أن يوضع حد لمثل هذه الأمور !
تأثر أبو مسلم مما سمعه من اعتراض الدعاة عليه للسن مرة ،
وللمصاهرة مرة أخرى ، ولأسباب أخرى لا يعددها الساخطون مرة ثالثة .
وأعمل رأيه في هذا الموقف الذي جد له ، والقتال على الأبواب . فأمسك
القلم وكتب إلى الإمام كتاباً مؤثراً وأبان له الخطر على الدعوة من مثل
هذه الأمور ، وأوضح له أن عدم الطاعة سيفضي إلى ضعف الدعوة في
خراسان والعراق ، وإلى هزيمة الجند ، فتكون النتيجة وبالاً .
وهنا تأثر الإمام من كتاب أبي مسلم ، فاستدعى كاتبه وأملى عليه
رسالة إلى الدعاة يؤكد فيها الوصاية بأبي مسلم ، ويوجب عليهم الطاعة
له ، واستنسخ من هذه الرسالة نسخاً بعدد الدعاة في خراسان والعراق
وختمها بخاتمه ، وأرسلها إليهم .
وكان كتاب الإمام إلى الدعاة سبباً في تسكين نفوسهم ، وحلهم
على طاعة أبي مسلم ، بل كان سبباً لدعم سلطته ، واشتداد أمره .

شييع مختلفة

كانت خراسان مستقرًا للفتن وخاصة منذ أن جاهر دعاة العباسيين بدعوتهم ، وكل فريق من الشييع المختلفة فيها يحاول أن يكسب إليه فريقاً آخر يتقوى به على خصمه . ونصر بن سيار واقف أمام هؤلاء الأعداء الراصدين له لا يدرى ماذا يصنع . وقد حاول أن يكسب لنفسه شييان وجنوده ليقوى به وبهم على قتال أبي مسلم ولكن أبا مسلم كان أدهى الرجال جميعاً ، فقال إلى ابن الكرمانى ظاهراً ليتخلص به من نصر بن سيار ، فإذا ما تخلص من نصر استطاع بعد ذلك أن يتفرغ لعدويه الآخرين : ابن الكرمانى وشييان ، وأن يتخلص منهما واحداً بعد آخر ، وبذلك يخاوله الجحور .

وصدق ابن الكرمانى كلام أبا مسلم ، وبعث إليه رسولا يقول له :
— إني معك على قتال نصر بن سيار .

أراد أبو مسلم أن يؤكد لابن الكرمانى صدق نيته فى معاونته ، فركب فى جماعة من جنده ، وقدم نفسه لخدمة الكرمانى ، الذى بلغ من الغفلة حدًا جعله يصدقه ويطمئن إليه ، ولم يدر أنه يدبر له أمراً ليأكله

وكانت هذه فرصة يلتقى فيها أبو مسلم الخراسانى مع ابن الكرمانى ،

فاتفقا على قتال عدوهما المشترك : نصر بن سيار ، وتعاهدا على مخالفته والتخلص منه .

وبعد أن تم التحالف بين أبي مسلم وابن الكرماني ، تحول أبو مسلم الخراساني بجنوده إلى بقعة فسيحة ، وأرض واسعة من أرض خراسان ، وقد امتلأت بهم الأرض على رحابها ، وكان الناس يتزايدون في الانضمام إليه . حتى كان جيشه عظيم العدد ، وافر السلاح ، كثير المئونة . وأخذ الرجل الداهية تنظيم جيشه على أدق وسائل التنظيم . . فجعل عليه الحرس والشرط ، وعين له الدواوين ، وأقام لنفسه ما يحتاج إليه الملك من العمال والأعمال ، وعين القاسم التميمي — أحد النقباء — قاضي القضاة وقال له :

— (يا قاسم ! إن مظاهر الدولة الهيبية ، ومن أمارات الملك العدالة . فاقض بين فيما يعرض لهم من خصومات بأمر الله الذي شرعه ، وبحق الله الذي فرضه . واعلم يا قاسم أن كل دعوة جديدة تحتاج إلى داعية يدعو لها ، ويحبب الناس فيها . وستصلي أنت بنا الصلوات ، فإذا قضيت الصلاة ، فاجلس حيث يجتمع المصلون حولك ، ويتحلقون بك ، وأنت تسمعهم من محاسن أهل البيت ، وفضائل بني هاشم ما يحببهم فيهم ، ولا تنس أن تذكر من مساوي بني أمية ، ما تزيد به موجدة الناس عليهم ، وبغضهم لهم ، ونفورهم منهم) .

وأخذ أبو مسلم يتحول من مكان إلى مكان ، ومن قرية إلى قرية

حتى بلغ بجيوشه قرية صغيرة يقال لها « بالين » ، وكانت في أرض منخفضة فخشى أن يقطع نصر بن سيار عنها الماء الذي يأتيها من عل ، فتركها إلى حيث يطمئن على سقاية الجند ، وكان في طريقه إلى حيث يتوقع اللقاء مع جيوش المروانية بقيادة نصر بن سيار .

وكانت الحرب في ذلك الحين قد نشبت بين نصر بن سيار وإلى خراسان من قبل الأمويين وبين ابن الكرماني أحد الخارجين على الدولة الأموية . وأخذ أبو مسلم الخراساني يترقب الأحداث بحذر شديد ، كما أخذ يقف موقفاً ذا دهاء بين الفريقين المتقاتلين ليكسب من هزيمة أحدهما ، فيتفرغ للقاء المنتصر .

ودارت رحى المعركة بين رجال الكرماني ، وكان فيهم بأس شديد ، وبين جنود نصر بن سيار . وقتل في هذه المعركة خلق كثير . وأخذ أبو مسلم - وهو في معسكره يرقب الحوادث - يكتب كلا من الفريقين المتحاربين ، ويستميلهم إليه . ثم استدعى إليه كاتب رسائله ، وأمله الرسالة الآتية :

(من عبد الرحمن أبي مسلم إلى ابن الكرماني)

إن الإمام إبراهيم قد أوصاني بكم خيراً ، ولست أعدو رأيي فيكم) ثم كلف أحد رجاله توصيل هذا الكتاب إلى ابن الكرماني وهو في وسط المعركة ، والقتال دائر بينه وبين جنود نصر بن سيار .

ثم استدعى أبو مسلم جماعة من كتابه ، وأملى عليهم رسائل قوية

فى الدعوة لأهل البيت . ومناصرة العباسيين الذين هم أحق بالخلافة من
مغتصبها الأمويين ، والتخلى عن بنى أمية الذين تؤذن دولتهم بالأفول .
وظوى أبو مسلم أغلاق هذه الرسائل ، وسلمها إلى رسل أمناء من
قبله ، ليوصلوها إلى الكور ، والقرى ، والدساكر ، فى أنحاء خراسان .
وكانت كل رسالة تحمل إلى الناس نفخات من أهل البيت ، وتدعوهم إلى
رجل من بنى العباس عم النبي عليه السلام .

ولم تلاق هذه الدعوات السافرة الآن كبير عناء . فالخراساني المسلم
يقبل فكرة التشيع لأهل البيت بسهولة تامة ، ولا يكاد يعارض فيها
أو يعترض عليها ، لأنها تعنى عنده نقل الخلافة إلى بيت النبي عليه
السلام ، وهو صاحب الرسالة ، ونبي هذه الأمة ، فالخلافة لا بد أن
تكون فى أهل بيته وراثته ، كما أن الملك عندهم وراثته ، لا ينقل من
بيت صاحبه إلى بيت آخر إلا إذا كان عن طريق الاغتصاب والاختلاس .
لهذا رحب أهل خراسان بالدعوة إلى العباسيين . وكان أبو مسلم
يعلم هذا ويعلم أكثر منه .. يعلم أن أهل خراسان عجم خاص ، وأن
العرب الأمويين كانوا طارئين عليهم . وتفردوا وحدهم بالسيادة فيهم ،
والسلطان عليهم ، مع أنهم من بلاد لها تاريخ قديم وملك قديم . فإذا
سنحت فرصة للتخلص من النفوذ العربى فلا بأس من انتهازها على الفور .
وقد سنحت لهم الفرصة اليوم .

وجلس اثنان من أهل إحدى الكور بإقليم خراسان يتحدثان فيما

صارت إليه البلاد الآن . فالكرماني يقاتل جيوش الوالى الأموى نصر ابن سيار ، وأبو مسلم الخراسانى واقف بين المعسكرين يترصد . فقال أحد الرجلين لصاحبه :

— ما رأيك فى هذه الدعوة الجديدة إلى إمام من أهل البيت ؟
— إنها دعوة حق ، فأهل البيت قد ظلموا وغلبوا على أمرهم ، منذ أن جاءت هذه الأموية ، ولقد حانت الساعة لإنصافهم واسترداد حقهم .

— ولكن ألم يجد الداعون إلا خراسان يجعلونها مسرحاً للفتن ؟ وما ذنبنا نحن وكل يوم جديد يطالعنا بقتال جديد ؟
— أجبناً ونحن لما نزل فى بداية الطريق ؟ ؟ ؟ أكنت تنتظر أن تقوم الدعوة العباسية فى بلاد الشام حيث أنصار الأمويين وحيث مقر خلافتهم ؟
— وما رأيك فى أبى مسلم ؟

— إنه الرجل الملائم للقيام بهذه الدعوة . وأنا على ثقة بأنه سيضرب أعداء بعضهم ببعض ، وينتصر عليهم جميعاً فى نهاية الأمر .

— ولكنى يا أخى لا أفهم لماذا يساعد أبو مسلم الخراسانى ابن الكرماني ، مع أننى عرفت أن ابن الكرماني يضمركه الشر ؟
— إنها الحرب يا أبله ؟ وإنها المكيدة والخداع . وأبو مسلم يعلم هذا من خصومه جميعاً ، ويعلم أنهم يتربصون به ، ولكنه بأكلهم واحداً واحداً مخافة أن يجتمع اثنان منهم عليه ، فيضعفا من خطته .

الأمير الهارب

أقبل أبو مسلم الخراساني في جنده ، فتنزل بين خندق نصر بن
سيار ، وخندق ابن الكرماني . وكان موقفه هذا سبباً لإلقاء الرعب
بين الفريقين . فابن سيار خائف منه بعد أن ظهر من مجاهرته بالدعوة
العباسية ، وابن الكرماني غير مطمئن إليه ، ويود لو عرف ما يدور
في نفسه من خطط ، وما يبيتته من تدبير . . .

والحق أن موقف نصر بن سيار كان يدعو إلى الرثاء والإشفاق ،
فهو أمام قوى ثلاث ، لا يدرى كيف يواجهها ، على أن قوة أبي مسلم
كانت أشد هذه القوى عليه وأكثرها دهاء .

دهش نصر بن سيار وإلى بني أمية وقائد جيوشهم في قتال العباسيين
من منظر لم يكن يتوقعه ، ومن مشهد لم يكن ينتظره . نعم ! دهش من
كثرة جنود أبي مسلم الخراساني ، ومن تدفق الرجال حوله ، ينضمون إليه ،
ويدخلون في صفوفه . فأمسك القلم . وكتب إلى الخليفة الأموي مروان
ابن محمد كتاباً جاء فيه الأبيات التالية :

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعيدان تذكي وإن الحرب مبدؤها الكلام

أقول من التعجب : ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام ؟
 فإن كانوا حينهم نياماً فقل : قوموا فقد حان القيام !
 وكأن هول المنظر قد استثار شاعرية الوالى نصر بن سيار ، وهو
 عربى بليغ فصيح ، تهزه المواقف وتنطقه بالقول . فأمسك القلم وكتب رسالة
 ثانية إلى يزيد بن عمر بن هبيرة نائب العراق من قبل بنى أمية ،
 يستنجد به على العدو الجديد العنيد ، ويطلب منه المدد والمعونة . وجاء
 فى كتابه شعريقول فيه :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تحققت أن لا خير فى الكذب
 بأن أرض خراسان رأيت بها بيضا إذا أفرخت حدثت بالعجب
 فراخ عامين إلا أنها كبرت ولم يطرن ، وقد سربلن بالزغب
 فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهين نيران حرب أيما لهب ..
 نعم ! صدقت يا نصر فى شعرك فإن هذه الفراخ العباسية الناشئة
 التى لا تزال نابذة الريش ، ناشئة الجناح ، سبتطير وتنهض وتقوى أجنحتها
 إذا لم تدركها جيوش بنى أمية !

أخذ دهاة الرجال فى المعركة يتربصون الفرص لإيقاع بعضهم
 ببعض .. فأبو مسلم الخراسانى يوقع بين ابن الكرماني وبين نصر بن سيار
 الأموى ، وهو فى الوقت نفسه يستميل الكرماني إليه ليوادعه حتى يخاص
 من ابن سيار .. ونصر بن سيار لا تفوته الحيلة ، فيكتب إلى الكرماني
 ناصحاً ومحدراً إياه من أبى مسلم الخراسانى ، ويقول له فيما يقول :

— ويحك يا ابن الكرماني ! لا تغتر بأبي مسلم ! فإنه إنما يريد قتلك وقتل أصحابك . . فهلم إلى ، وتعال نكتب كتاباً بيني وبينك بالموادعة ! وانطلت حيلة نصر بن سيار على ابن الكرماني ، فدخل داره ، ثم خرج إلى الرحبة ومعه بعض رجاله الفرسان من بطانته ليكتب عهد الأمان والموادعة مع ابن سيار ، وبعث إليه من رجاله من يقول له : هلم يا نصر لتتكتب .

وهنا كانت الفرصة سانحة لنصر بن سيار حتى ينفذ ما عزم عليه من مخادعة ابن الكرماني ، وأصاب منه غرة ، فنهض إليه في خلق كثير ، ليحاربه لا ليوادعه . . . وحمل رجال نصر على ابن الكرماني وفرسانه حملة شديدة ، لم يكن مستعداً لها لأنه لم يكن يتوقع الغدر من صاحبه . وتقدم رجل من رجال نصر ، وقد أخذته حماسة شديدة ، فطعن ابن الكرماني في خصره طعنة كانت القاضية عليه ، فخر المخدوع عن دابته ، ولم يكتف نصر بهذا المصير للكرماني ، فأمر بصلبه ، وصلب معه جماعة من رجاله .

وكانت هذه الفعلة الشنعاء التي فعلها نصر بن سيار والى الأمويين بابن الكرماني سبباً في استفزاز نفر من أهل خراسان ، وفيهم أتباع ابن الكرماني ، فقد استبانوا جميعاً غدر الوالي الأموي ، وانضافوا بجمعهم إلى أبي مسلم الخراساني ، يناصرونه على جيوش بني أمية . وهكذا ضمن أبو مسلم بعض المكاسب في حربه مع الأمويين .

وفي يوم من أيام جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ كان أبو مسلم الخراساني يتقدم بجيشه الزاحف المنتصر نحو مدينة مرو - وهي عاصمة خراسان - وكانت خطته من وراء ذلك الزحف على قصبة البلاد أن يصل إلى مركز الحكم الأموي فيها فيعطله ، ويشل أدواته . وفعلا توجه برجاله المنتشين بخمر النصر إلى دار الإمارة في مرو . حيث يجلس نصر بن سيار على كرسي الحكم في ولاية خراسان . واستطاع أبو مسلم أن ينتزع دار الإمارة الأموية من يد نصر بن سيار . وكان للفتى علي - ابن الكرمانى المخدوع المصلوب - أثر في هذا النصر الحاسم السريع .

والآن ننظر إلى ما جرى لنصر بن سيار حين ضيق أبو مسلم الخراساني عليه الخناق في عاصمة ولايته . إلا أننا يجب أن نقول إن أبا مسلم كان على غاية الحذر والحرص كعادته دائماً . فلم يطمئن كل الاطمئنان إلى الفتى علي بن الكرمانى - ولو أن هذا انحاز إليه برجاله بعد مصرع أبيه - وخشى أن ينحاز « علي ابن الكرمانى » إلى نصر بن سيار في أثناء حصار مرو لمحاربتة معاً ما دامت كفته هي الراجعة . وأرسل إلى علي بن الكرمانى ليدخل مدينة مرو قبله لمحاربة نصر داخل عاصمته . وكان قصد أبي مسلم الخراساني من ذلك أيضاً أن يسخر جنود الكرمانى في المعركة حتى لا تبقى لهم قوة . وبذلك يستطيع هو في النهاية أن يدخل مدينة مرو بعد أن تكون قد ضعفت قوة الفريقين . .

وفعلا دخلت جيوش أبو مسلم مدينة مرو ورجال نصر بن سيار

وعلى ابن الكرماني يقتتلان قتالا عنيفاً . وكان حوله جماعة من رجاله منهم أسيد بن عبد الله الخزاعي ، ومالك بن الهيثم ، والقاسم بن مجاشع التميمي . فيمم وجهه شطر قصر الإمارة ، وهويتلوقوله تعالى : « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه . . . » .

وهنا كف الفريقان المتقاتلان عن الحرب : فريق الأمويين وعلى رأسه نصر بن سيار ، وفريق الكرماني ، وعلى رأسه ولده علي . وسلمت مرو لأبي مسلم الخراساني وصفت له الأمور فيها من غير حرب من جانب رجاله .

وأرسل أبو مسلم الخراساني رجلاً من أتباعه اسمه « لاهز » ومعه جماعة من أنصار الدعوة العباسية إلى نصر بن سيار وهو مضيق عليه في الحصار . يدعوه إلى كتاب الله عز وجل ، وإلى الرضا من آل محمد . فلما رأى نصر كثرة ما وفد عليه من الجماعة . وأنه لا قبل له بهم ، ولا طاقة له عليهم أخذ يماطل ويسوف في الجواب ، استعداداً منه للهرب والنجاة . حتى دخل المساء . وأصبح الطريق غير متبين ولا واضح ، فأمر أصحابه أن يخرجوا من مدينة مرو ليلاً ، متخذين الليل ستاراً ، إلى مكان يأمنون فيه ، ولكنهم أرجأوا ذلك إلى الليلة القابلة . فلما كان الغد عبأ أبو مسلم الخراساني أصحابه وكتائبه إلى بعد الظهر ، وأعاد رسوله « لاهز » مرة ثانية ومعه جماعة ، ليعرضوا الدعوة على نصر ، وليأخذوا أبو مسلم الخراساني

منه البيعة للإمام الرضى ، وإلا حلت لهم محاربته . ودخل لاهز على نصر ، فلما رأى إصرارهم على ذلك رجاهم أن يمهلوه قليلا حتى يتوضأ ويخرج إليهم ، ثم رجاهم أن ينتظروا حتى يبعث برسوله إلى أبي مسلم الخراساني ليتلقى منه ما عرضوه عليه . ودخل نصر بن سيار الجناح الخاص بمسكنه من قصر الإمارة على أنه ينتظر عودة رسوله من عند أبي مسلم . والحق أن ابن سيار كان يدبر كل هذا حتى يهرب من مرو ويسلم من الوقوع في قبضة أبي مسلم . فلما جنة الليل خرج متسللا من حجرة خلفية ، ومعه ابنه ، ومستشاره الحكم ، وامراته « المرزبانة » ، وأمعنوا في الهرب ، وقد أعانهم الظلام الحالك الذى كان يلف مدينة مرو في تلك الليلة على نجاح خطتهم .

وكان « لاهز » رسول أبي مسلم ينتظر هو وجماعته عودة نصر إليهم كما وعدهم ! ويظهر أنهم كانوا يحسنون الظنون به ، وكانوا يظنون أن تمثيلية رسوله إلى أبي مسلم وانتظاره الرد منه حقيقة لا مزية فيها . فلما استبطأوا عودته من جناحه الخاص إليهم ، دخلوا عليه منزله ، فلم يسمعوا له حساً ولا ركزاً ، ووجدوا أنه قد اتخذ سبيله في الليل هرباً .

وعاد « لاهز » إلى أبي مسلم الخراساني يحمل إليه نبأ الوالى الأموى الهارب ، فعجب من قائد يترك معسكره ورجاله في الميدان ، ويولى الأدبار . وسار في جنده إلى معسكر نصر بن سيار ، وأخذ كبار رجاله ، وثقات أصحابه ، وأعظم صناديده ، فشدهم جميعاً في وثاق ، وساقهم

موثقين في الحديد ، وجبسهم في محبس عنده حتى يأمن غدراهم . وكان فيهم سالم بن أحوز صاحب شرطته ، والبخترى صاحب ديوان رسائله ، ولم يسكت أبو مسلم بالطبع عن طلب نصر بن سيار ، وعز عليه أن يفلت من يديه بعد أن كان منه على أطراف الأصابع ، وكيف يفلت منه وهو بأرض خراسان التي تكاد تدين بالحب والطاعة للدعوة الجديدة ؟ فسار وسار معه على بن الكرماني يطلبان نصراً الهارب تحت ستار الليل . ولشد ما كانت دهشة أبي مسلم حين وجد المرزبانة - امرأة نصر - وقد خلفها زوجها الهارب وراءه في مدينة سرخس ، ومضى هو وبدونها معنأ في الحرب . وهنا اكتفى أبو مسلم بما كان فيه من أمر البحث عن نصر وعاد ثانية إلى مرو

رجع أبو مسلم الخراساني إلى خيامه ومعسكر رجاله في عاصمة خراسان وهو لا يدرى سبباً لهروب نصر بن سيار بعد أن وعد بالقدوم عليه وقبوله الدعوة إلى الرضا من آل محمد . وأخذ أبو مسلم يتساءل ويسأل رسله الذين أرسلهم إلى نصر في قصر الإمارة :

— ما الذي ارتاب به نصر حتى هرب ؟

فقالوا جميعاً :

— لا ندرى لذلك سبباً ، بعد أن أعطانا العهد .

فقال لهم أبو مسلم :

— هل تكلم أحد منكم بشيء أمامه ؟

فأجابوا :

— نعم تلا « لاهز » أمامه قوله تعالى : (إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك ، فاخرج إني لك من الناصحين) .

فقال أبو مسلم :

— هذا الذى دعاه إلى الحرب . . ثم أمر بأن يقتل « لاهز » .
ولا يفزعنا هنا مقتل لاهز مع أنه كان من رجال أبي مسلم ، فإن الرجل كان لا يتهاون فى سبيل قيام الدعوة بأمر من الأمور ، وقد نزع الرحمة عنه ، حتى لا تفسد العواطف عليه ما هو بسبيله من أمر خطير . ومما يؤكد لنا ذلك ما فعله مع أصحاب نصر بن سيار الذين أوثقهم وكتفهم فى الحبس ليلة هربه . فلقد كان ينوى قتلهم ، ولكنه أراد ألا يحمل وحده تبعة ذلك العمل الجسيم ، فاستشار « أبا طلحة » أحد دعاة العباسيين فى أمرهم فقال له « أبو طلحة » :

— اجعل سوطك السيف ، وسجنتك القبر !

وما أسرع ما استند أبو مسلم إلى هذه المشورة ! فقتلهم وكان عددهم أربعة وعشرين رجلا .

وكانت هذه الحوادث كافية لتقوية أمر أبي مسلم ، وإعزاز جانبه واستفحال أمره . فهابه الناس ، ودان له الجند بالطاعة والتفت عليه العساكر .

تصدع جديد

كان أبو مسلم يرجو أن يصفو له أمر نصر بن سيار ، وأن يقع في يده فيتخلص منه ومن مشاغباته التي سيثيرها عليه من مهربه فيما وراء حدود « سرخس » . ولكن شاعت الظروف أن يهرب نصر أو أن يظل بعض الحين شوكة في جنب أبو مسلم الداهية . ولو أن الأمر أمر نصر وحده لهان ، ولكن هناك « شيبان » الحرورى العدو القديم لأبي مسلم ، والذي « الأ » ابن سيار عليه . وهناك أيضاً « على » و « عثمان » ابنا الكرمانى ، اللذان يود أبو مسلم أن يتخلص منهما حتى يخلو له الأمر . وأخذ أبو مسلم يدبر الأمر للخلاص من أعدائه حتى يكون له وحده الأمر . فاتفق مع أحد رجاله المسمى « أبى داود » على قتل عثمان الكرمانى ، على أن يقتل أبو مسلم نفسه علياً الكرمانى فى اليوم نفسه . وتم ذلك على ما أراده أبو مسلم .

أما أمر شيبان الحرورى وأمر الخلاص منه فقد وكله أبو مسلم إلى « بسام » مولى بنى ليث . وركب بسام إلى شيبان يقاتله . والتقىا فتقاتلا ، ولم يستطع شيبان أن يثبت أمام بسام الذى حمل عليه حملة صادقة فقتله ، وأخذ يتتبع أصحابه حتى شبع فيهم قتلا وأسراً .

بقى نصر بن سيار . . ولن يهدأ لأبي مسلم جنب أو تغمض له عين حتى يقاتله ويقتله .

وعلم أبو مسلم بأن نصر بن سيار جمع جنوده في نيسابور ، وأن أتباعه من رجال بني أمية مصممون على القتال . فاختر له قائداً من أشجع قواده اسمه « قحطبة بن شبيب » ، وأرسله لقاتله ، وأرسل معه جماعة من كبار الأمراء ، منهم خالد بن مالك - وهو جد أسرة البرامكة التي لعبت دوراً كبيراً في الدولة العباسية - ولكنهم بدلا من أن يلاقوا نصراً نفسه لاقوا ابنه « تميماً » ، وكان أبوه قد وجهه إلى لقائهم في مدينة طوس . وكانت المعركة حامية جداً ، وقد شبع قحطبة ورجاله في أصحاب نصر قتلاً ، حتى بلغ عدد القتلى من جند تميم بن نصر بن سيار سبعة عشر ألفاً في المعركة .

والحق أن جيش قحطبة الأول لم يكن كافياً للقاء جند تميم وأصحاب نصر ، فبعث قحطبة إلى أبي مسلم يطلب منه المدد لإنهاء المعركة . فأمدّه أبو مسلم بنحو عشرة آلاف فارس من خيرة الرجال المدربين على الحرب ، المؤمنين بالدعوة . فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وقتلوا من جنود الأمويين خلقاً كثيراً . ولم يسلم تميم نفسه في المعركة فأصابته طعنة قاتلة . وغنم رجال أبي مسلم الخراساني وعلى رأسهم قحطبة أموالاً جزيلة جداً من جيش بني أمية . ورأى جنود الأمويين هزيمتهم المنكرة أمام جيوش أبي مسلم ، فبعثوا إلى زيد بن عمر بن هبيرة وإلى الخليفة مروان

الأموى على العراق ، يطلبون منه المدد ، فأمدهم ببعض السرايا .
وهنا كان قحطبة نفسه فى المعركة يدير رحاها ، ويوجه حركاتها ،
فحمل على جند بنى أمية حملة شديدة انهزموا فيها شر هزيمة ، وقتل من
أهل الشام - وهم أتباع مروان من الأمويين - عشرة آلاف نسمة ،
منهم « نباتة بن حنظلة » عامل بنى أمية على جرجان ، الذى بعث قحطبة
برأسه إلى أبى مسلم . . .

انتهى عام سنة ١٣٠ هـ بما حملة من الأحداث والوقائع التى ذكرناها
قبلا . واستهل عام ١٣١ هـ وأبو مسلم الخراسانى يوطن عزمه على الخلاص
نهائياً من الأمويين . وكان نصر بن سيار عاملهم على خراسان ، لا يزال
يجمع جيوشه هنا وهناك ليناوش بهم جنود الدعوة الجديدة . وظل
نصر ينتقل من بلد إلى بلد ليشعل الفتنة ضد رجال أبى مسلم الخراسانى
الذى أخذ نفوذه يزداد ، ومركزه يتقوى فى بلاد خراسان كلها . ولم
يسكت أبو مسلم عن ملاحقة نصر بن سيار فى أى مكان يكون فيه .
فبعث إلى قحطبة بذلك . وفى شهر المحرم من العام الجديد وجه قحطبة
ولده « الحسن » إلى مدينة « قوميس » لقتال نصر الذى اعتصم هناك .
وكان يتابعه بالأمداد من وقت إلى وقت . واستطاع نصر ببلاغته
المأثورة عنه ، وشدة تأثيره فى الكلام ، وصدق وفائه لبنى أمية
ولقضيتهم التى كان يعدها قضية العرب ضد العجم - استطاع أن
يكسب بعض الأنصار ويضمهم إلى صفه . ولكنه بمن انحاز إليه كان

أضعف من أن يكون راجح الكفة أمام جنود العباسيين . فارتحل من مدينة قوميس إلى مدينة الرى ، واعتصم بها يومين . ولكن المرض أدركه ، وكانت قواه قد انحلت ، وأثر في جسمه طول الصراع ، فسار منها إلى همدان ولما بلغ مدينة « ساوة » كان الضعف والإنهاك قد بلغا منه ، فوافته المنية لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . . وكانت سنه خمساً وثمانين . وقد أراح الله بموت نصر بن سيار بال أبي مسلم الخراساني وبأل رجال الدعوة وقوادها ، وخاصة قحطبة . فتخلصوا - بالموت الطبيعى - من شيخ أفنى عمره مدافعاً عن دولته . وهكذا حل المرض والموت قضية لم تحلها السيوف الصوارم . . .

وبموت نصر بن سيار العدو الأول للدعوة الجديدة تمكن أبو مسلم الخراساني وأصحابه ، من بلاد خراسان ، وقويت شوكتهم ، حيث انزاح من طريقهم أكبر عائق كان يعطل تقدمهم ، ويهدد سلامتهم . وإذا كانت خراسان قد خلصت كلها تقريباً لأبي مسلم ورجاله ، وارتفعت رايات الإمام إبراهيم بن محمد العباسي في كل شبر من أرضها فإن العراق قد بقى مصدر خطر على الدعوة الجديدة ، فإن « ابن هبيرة » واليه ونائبه من قبل الأمويين كان لا يزال بجيوشه في العراق يأمل أن يلاقى جنود الدعوة الجديدة في معركة تقرر المصير بينه وبينهم . وقد تولى قحطبة بنفسه لقاء يزيد بن عمر بن هبيرة في العراق ، وقصده في جيش كثيف كثير العدد والعدة ، فلما اقترب منه تفهقر ابن

هيرة إلى الخلف ، وقحطبة يتقدم إليه ، وما زال ابن هيرة يتقهقر حتى جاوز الفرات ، وقحطبة يتتبعه حتى جاوز النهر وراه . وهنا كانت سنة ١٣١ هـ وقد انتهت بما رأيناه من أحداثها في الصفحات السابقة ، ودخلت سنة ١٣٢ هـ ، فلننظر ما كان يخبئه فيها القدر للفريقين المتحاربين .

لما اجتاز قحطبة نهر الفرات متعقباً خطوات ابن هيرة في تقهقره كان صاحبنا هذا قد حط رجال جنده وعسكر بهم في مخيم على فم الفرات مما يلي مدينة « الفلوجة » . وكان معه خلق كثير ، وجم غفير وهنا في هذه البقعة التي اختارها مخيماً لعسكره كانت الأمداد التي بعث بها إليه الخليفة مروان الأموي قد وصلت إليه ، فازداد بهم عدداً وعدة ، واستطاع أن يجمع إليه فلول المنهزمين من رجال بني أمية . ولم يكن قحطبة يتوقع أن يرى ابن هيرة في مثل هذه الجموع الكثيرة ، فعدل عن ملاقاته ، واتجه إلى مدينة الكوفة ليأخذها ، فترجع بهذا كفته على كفة خصمه . ولكن ابن هيرة طارد جيش قحطبة واتبعه ليلقاه لقاء فاصلاً وكان قد مضى من شهر المحرم من العام الجديد ثمانية أيام . فالتقى الفريقان ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وأعمل كل فريق سيوفه وحرابه في رقاب الفريق الآخر ، وفي مواقع الطعن والضرب من أجسامهم ، حتى كثر القتل بين الفريقين .

ولقد صدق جند الأمويين في المعركة ، وصبروا على القتال ، ولكنهم لم يستطيعوا الثبات أمام عدو قوى الشكيمة ، متحمس الروح ، أبو مسلم الخراساني

شديد الإيمان بدعوته والدفاع عن فكرته . فولوا منهزمين ، واتبعهم رجال قحطبة ، وكان أغلبهم من أهل خراسان أنصار الدعوة الجديدة . واستحر القتل بين الفريقين ، حتى أخذ رجال قحطبة يبحثون عنه فلم يجدوه ، وكأن أرض المعركة قد ابتلعتهم . وإذا برجل ينادى من صفوف الخراسانيين :

— يا معشر الرجال ! صبراً إذا كان القضاء قد نزل بقائدكم قحطبة ! إنه قد قتل ، وقد سمعته بأذني هذه يوصي بإمارة الناس من بعده لابنه الحسن !

وانطلق رسل في زحام المعركة ، وبين الصفوف التي كان الموت يحول بينها ليبحثوا عن الحسن بن قحطبة ، ليعقدوا له بالإمارة مكان والده المفقود ، فلم يجدوه حاضراً ، فبايعوا أخاه حميد بن قحطبة . وبعثوا بالبريد إلى الحسن بن قحطبة ليحضر ، ليتسلم مكان القيادة من أخيه ، عملاً بوصية أبيه .

ولم يكن غير يومين حتى جاء يوم عاشوراء ، وهو العاشر من شهر المحرم ، وإذا بالحسن بن قحطبة — بعد وصول البريد إليه — يسير نحو الكوفة ليرى ماذا يكون من أمرها ، وليطمئن على مصيرها ، فوجد أحد دعاة العباسيين — وهو الأمير محمد بن خالد بن عبد الله القسري — سبقه إليها ودخلها في جماعة من رجاله ، ودعا فيها إلى بني العباس ، ولبس السواد شعار الدولة العباسية الجديدة ، فتبعه أهلها ، وخلعوا

طاعتهم من عاملها : زياد بن صالح الحارثي نائب ابن هبيرة . ودخل ابن خالد القسري قصر الإمارة في الكوفة ، قبل أن يدخلها الحسن ابن قحطبة .

لم يسكت ابن هبيرة على هذا الصدع الحديد في جسم الخلافة الأموية ، وقد أزعجه سقوط الكوفة في يد محمد بن خالد القسري تابع العباسيين ، فكلف « حوثة » أن يذهب إلى الكوفة ليستنقذها من أيدي رجال الدعوة العباسية . وبعث معه جيشاً عدته عشرون ألف مقاتل . فلما اقترب رجال حوثة من الكوفة أخذوا ينفضون عنه ! وينضمون إلى الأمير محمد بن خالد القسري ليبايعوه لبني العباس ! فلما رأى حوثة ذلك من صنع أصحابه ارتحل بمن بقي من رجاله نحو مدينة « واسط » .

أبو العباس السفاح

كان الخليفة مروان الأموي مقيماً في ذلك الحين بمدينة « حران » ، يتتبع سير الأحداث ، ويتلقى الأنباء التي كانت تأتيه بالبريد على ظهور الجياد وأصائل النجب ، حاملة له من أخبار المعارك الدائرة في خراسان والكوفة والعراق ما ينذر بقرب مصير الدولة الأموية . وكان مروان على عرش خلافة بني أمية قلق الوساد ، مضطرب المهاد ، وهناك في « البلقاء » قرب مدينة دمشق عرش جديد آخر يجلس عليه إبراهيم ابن محمد الإمام العباسي الذي كان الأنصار والدعاة يدعون له في خراسان أولاً ، وفي غير خراسان بعد ذلك . . .

ولما جاهر العباسيون بالدعوة ، وصرحوا باسم الإمام الذي يدعون إليه — وهو إبراهيم بن محمد — كتب مروان الأموي إلى نائبه في دمشق أن يحضر له هذا المنافس على الخلافة . ولم يتوان نائب دمشق في تنفيذ أمر مروان ، فبعث البريد في كل مكان ومعه صفة الإمام إبراهيم العباسي ونعته . فذهب الرسول فوجد أول الأمر رجلاً يشبهه كأنه هو . فإذا به أخوه أبو العباس السفاح — الذي صارت إليه الخلافة العباسية بعد ذلك — فاعتقد الرسول أنه هو إبراهيم الإمام ، فأخذه ، فقبل له

إنه ليس هو ، وإنما هو أخوه . فلما استوثق من ذلك خلى سبيله ، وأخذ في البحث عن الإمام إبراهيم من جديد . وأوقعته الحظوظ السود في يد الرسول ، فقبض عليه وعلى جارية له كان يحبها حباً شديداً . فلما رأى الإمام ذلك توقع السوء من الخليفة الأموي مروان ، فودع أهل بيته ، وأوصاهم أن يكون أخوه أبو العباس السفاح خليفة العباسيين من بعده . وأمرهم بالرحيل عن هذا المكان ، حتى لا يتعرضوا من بعد للسوء والقبض والمصادرة من يد مروان . وأوصاهم أن يتجهوا إلى الكوفة ، حتى يكونوا هناك بأمن من الأمويين .

وسار أعمام الإمام إبراهيم وأخواه أبو العباس السفاح ومحمد ، وابناه محمد وعبد الوهاب ومعهم خلق غير يسير من أهل بيته وأنصارهم إلى الكوفة ، وكانت في ذلك الوقت لا تزال في أيدي بني أمية ، ونزلوا في دار أبي سلمة الخلال الذي صار فيما بعد وزيراً للسفاح ، ثم ظلوا يرتحلون سرّاً من مكان إلى آخر خشية أن تعرفهم العيون ، أو تأخذهم الظنون ، إلى أن فتحت البلاد . وقتل إبراهيم الإمام كما سيجيء ، وبويع لأخيه أبي العباس السفاح ، فظهروا على حقيقتهم ، وخرجوا من مكانهم . والآن أقص عليك كيف قتل إبراهيم الإمام بعد أن وقع في يد رسول مروان ، وكيف صارت الخلافة العباسية إلى أخيه أبي العباس السفاح . .

لما وقع الإمام إبراهيم بن محمد في يد رسول الخليفة الأموي مروان ،
أخذه هذا مخفوراً موثقاً في الأغلال إلى مروان وهو بمدينة حران . فلما
وقع نظر هذا عليه أخذ يعنفه على تلك الحركة التي قام بها ، ولكنه لم
يجرؤ على قتله وهو في أشد حالات الغضب عليه ، حتى لا يثير
بذلك عليه سخط أهل البيت النبوي الكريم ، ولهم في النفوس محبة
قائمة ، ومودة دائمة . فاكتفى بأن يأمر بحبسه ، وهو يدبر في نفسه أمراً ،
ويرسم خطة للخلاص منه . . .

ولم تكن هناك في نظر مروان خطة أسهل من أن يجعل موته
غير مقصودة ، حتى لا يتهم بأنه هو قاتله . فأسكنه في
محبس يقال إنه أقام قواعده على كتل من الملح . وهو يرمى من وراء ذلك
إلى أمر . . .

وفي ليلة معهودة عهد إلى رجاله بأن يسلطوا الماء على أساس البيت
الذي حبسه فيه ، فلما تمكن الماء من حوالى القواعد ، ذاب الملح
فانهارت جدران الحبس وسقفه ، ووقع الإمام إبراهيم قتيلاً تحت
الأنقاض ! وأذاع مروان أن بيت الإمام قد انهار ، وأن وفاة الإمام
كانت نتيجة لحادث طبيعي لا يد للأمويين فيه . .

وهذه إحدى الموات التي يقال إن إبراهيم الإمام لقيها على يد
الخليفة مروان الأموي . وقد قيل أيضاً إن مروان أمر بأن يسقى الإمام
لبناً مسموماً ، فلم يكذ يتناوله حتى كان السم سرى في جسده فمات .

كما قيل إنه قتله قتلاً صريحاً لم يلجأ فيه إلى جدار مهدوم ، ولا إلى لبن مسموم . . .

* * *

بعد مقتل الإمام إبراهيم بن محمد العباسي بوبيع أخوه أبو العباس بالخلافة ، كما عهد له بها الإمام . وقد حاول جماعة من الدعاة أو المتظاهرين بالدعوة العباسية أن يحولوا الخلافة من البيت العباسي إلى أبناء علي بن أبي طالب ، وهم أبناء عم العباسيين . وكان يتزعم هذا الفريق « أبو سلمة الخلال » الذي غلبه بقية النقباء والأمراء العباسيين ، الذين أحضروا أبا العباس السفاح بمدينة الكوفة وسلموا عليه بالخلافة في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ . وكان أبو سلمة الخلال أول من سلم عليه ، بعد أن غلبه النقباء على أمره .

والآن نبحث عن أبي مسلم الخراساني بين الوافدين والمهثئين فلا نجد أنه مشغول في خراسان بإتمام إخضاعها ، وأخذ الطاعة منها جميعاً للعباسيين ، حتى تعلن مبايعة أبي العباس عن بكرة أبيها ، لا يشذ منها شاذ ، ولا يتخلف منها متخلف .

واكتفى أبو مسلم بأن يبعث من عنده رسولا إلى أبي العباس يهنئه بالخلافة ، ويبايعه بالطاعة . وجاء الرسول . وكان لا يعرف هيئة أبي العباس ولا صفته — فدخل بيت الإمام ، فوجد رجلين تبدو على وجه كل منهما سمات النبوة ، وملامح أهل البيت الكريم ، وحوطهما

الأكابر من وجوه القوم وأعيانهم وسراة الكوفة . فابتدروهما بالسؤال قائلاً :
- أيكما ابن الحارثية ؟

ولم يكن الرجلان غير الإمام أبي العباس السفاح الخليفة العباسي
الجديد ، وغير أخيه لأبيه أبي جعفر المنصور . .

ولم يكن ابن الحارثية إلا الخليفة السفاح نفسه ، والحارثية أمه عربية
صميمة النسب . أما أخوه أبو جعفر المنصور فأمه جارية اسمها « سلامة » .
ولقد كان المنصور أكبر سنّاً وأحق بالخلافة من أخيه السفاح ، ولكن
الإمام المقتول إبراهيم أوصى من بعده لأخيه الأصغر لأن أمه عربية
الأنساب .

وكان هذا التفضيل والإيثار بالخلافة من الأسباب التي حزت في
نفس أبي جعفر المنصور .

فلما دخل رسول أبي مسلم الحراساني ، يسأل عن ابن الحارثية
ليبايعه ، أحس أبو جعفر بما في ذلك من تصغير مقصود لشأنه من
أبي مسلم ، وأسرّها أبو جعفر في نفسه ، وعدها من سيئات أبي مسلم .
فكان ذلك أول ما بين الرجلين من أسباب الخصومات .

وأخذت الحوادث بعد ذلك تتوالى ، وأسباب الخلاف تتسع بين
أبي مسلم وأبي جعفر . ولكن أبا جعفر المنصور ليس هو الآن بالخليفة
وليس في يده من أسباب القوة والتنفيذ ما يشقّ به غيظ نفسه من
أبي مسلم ، فليتنظر حتى تواتيه فيه الفرصة ، وتمكنه الظروف .

وكلما مرت الأيام زاد مرورها من تقوية أسباب الكراهة بين الرجلين وأبو مسلم رجل عنيد ، وهو معتد بمكانته من الخليفة أبي العباس السفاح ، ومعتد بشخصيته وقوته ومنعته في بلاد خراسان إلى أبعد الحدود .

ولإى ذلك الحين لم يكن أبو مسلم قد وفد بعد لبيايع السفاح بالخلافة مكتفياً بالرسول الذى أشرنا إليه . فأراد السفاح أن يستوثق من ولاء أبى مسلم وطاعته ، ويختبر مدى قوته ، فأرسل إليه أخاه أبا جعفر ليأخذ منه البيعة ، فلا يجشمه مشقة الحضور من جبال خراسان ، وليعرف فى الحقيقة أحواله ، ويستطلع أسرار ه . وكان مما حمل السفاح على هذا هو تشككه فى إخلاص بعض الدعاة ، وخاصة بعد ما ظهر من محاولة أبى سلمة الخلال نقل الخلافة من العباسيين إلى الطالبيين .

وترك أبو جعفر الكوفة ، وأخذ يجتاز العراق ، ويخترق الحدود ، ويعبر السهول والحزون ، ويطوى الأرض بأوديتها وجبالها ، حتى بلغ أرض خراسان ، ووصل إلى مكان أبى مسلم ، ورأى بعينه كيف دانت له خراسان كلها بالطاعة ، وأقرت له بالسلطان ، وكيف خافه الناس حتى فزعوا من ذكر اسمه ، وكيف أحبه أصحابه وتعلقوا به ، وتفاؤوا فى خدمته . وكان أبو جعفر المنصور ينتظر من أبى مسلم لقاء حاراً ، واستقبالا رائعاً ، وحفاوة بالغة ، ولكنه لقي منه دون ما كان يتوقعه ، وما يليق بقدرة ، وهو أخو الخليفة القائم ، وولى عهده من بعده .

وحزت هذه المقابلة فى نفس أبى جعفر ، فأسرها فى نفسه ، كما

أسر ما قبلها من أسباب النفور . .

وحدث في أثناء إقامة أبي جعفر المنصور بخراسان أن أبا مسلم اشتبه في أمر كبير نقباء خراسان ، واسمه سليمان بن كثير ، وباعه عنه ما رابه في أمر إخلاصه للدعوة العباسية ، فغضب أبو مسلم على ابن كثير ، ولم يجد متنفساً لهذا الغضب إلا أن يقتله بالشبهة ، دون أن يستشير في ذلك أبا جعفر وهو نائب الخليفة إليه ، ودون أن يرجع في النهاية إلى الخليفة السفاح نفسه ، الذي تفرض له الولاية ، وتجب له الطاعة ، فلا يقضى في أمر كبير كهذا دونه . . .

وعاد أبو جعفر المنصور من هذه الرحلة وفي نفسه من أبي مسلم أشياء . ودخل على أخيه الخليفة السفاح . فلما فرغ من سلامه وتحياته بادره الخليفة بقوله :

— كيف رأيت خراسان يا عبد الله ؟

— رأيته يا مولاي وقد استقام فيها الأمر لأبي مسلم ، حتى لترهبه الأجنّة في بطون الأمهات .

— وما في هذا بأس يا عبد الله ، فإن السلطان يقوم على الرهبة !

— نعم يا أخى ، ولكن رهبة أبي مسلم ليست مما يقوم عليه سلطانك

— كيف ذلك ، وأنا الخليفة يا عبد الله ؟

— يا أخى ، ويا أمير المؤمنين ! إنك لست بخليفة ما دام أبو مسلم

حيا حتى تقتله . . فإني أرى طاعة العساكر له ، وخضوعهم لأمره .

— اكتمها يا أخى ! اكتمها !

وخرج أبو جعفر من مجلس أخيه السفاح راضياً بأنه أشعل فتيلاً فيما بينه وبين أبى مسلم من عداوة . وقد أكدت له رحلته إلى خراسان ما كان فى نفسه من شعور نحو هذا الرجل العنيد الصلف .

ومرت أيام قصار وإذا بالسفاح يستدعى أبا جعفر إليه ، ثم يأخذ ويعطى معه فى الحديث قائلاً :

— كيف حال دولتنا الآن يا عبد الله ؟

— بخير : لولا وجود أبى مسلم فى بعض أقطارها !

— ألا تدع عنك يا أخى ذكر أبى مسلم ؟ أما كان أولى بك أن تصب نقمتك على عدونا وعدو دولتنا ابن هبيرة نائب مروان الخليفة الأموى المقتول ؟ إنه الآن فى مدينة واسط ، ونخشى أن يفتح علينا الشر من ناحيته . . .

— لا تخش سوءاً إن شاء الله يا أمير المؤمنين ! فإنى أكفيك الآن

شر ابن هبيرة !

— مكن الله لك يا عبد الله من عدونا . . فسر على بركة الله .

وسار أبو جعفر ميمماً شطر مدينة واسط لقتال ابن هبيرة ، وهو البقية الباقية من فلول الأمويين الذين ذهب دولتهم ، وحلت محلها الآن دولة بنى العباس . وضيق أبو جعفر الحناق على ابن هبيرة ، الذى أراد أن يستفيد من الظروف القائمة فيبايع لإمام من أئمة الطالبين ، نكاية

منه في العباسيين ونقمة عليهم . وقد كتب فعلا إلى الإمام محمد بن عبد الله ابن الحسن الطالبي يعرض عليه طاعته ، فلما أبطأ عليه رد الجواب ، لم يجد بداً من مصالحة أبي جعفر المنصور .. وجرت بينهما السفارة على الصلح فبعث أبو جعفر إلى أخيه الخليفة السفاح يستأذنه في إمضاء الصلح فأذن له في ذلك .

وكتب أبو جعفر كتاب الصلح وبعث به إلى ابن هبيرة ليمضيه ، فأخذ الرجل يقرؤه مرة ثانية وثالثة ، ويعاود النظر في نصوصه ، ويشاور فيه العلماء أربعين يوماً ، حتى يضمن الأمان لنفسه . ثم رده إلى أبي جعفر الذي أراد أن يأخذ عليه موافقة أبي العباس السفاح .

وكتب السفاح إلى أبي مسلم يستشيره في مصالحة ابن هبيرة ويخبره بما كان من إقدام أبي جعفر على الصلح . . فرأى أبو مسلم الفرصة سانحة للطعن في رأى أبي جعفر ، ولمعارضته حتى لا يتم كما يشتهي له ، وأشار بقتله ، وكان للسفاح ثقة كبيرة في أبي مسلم . فلما وقع الصلح على يدي أبي جعفر لم يحب السفاح ذلك ولم يعجبه ، لأنه جرى على خلاف ما أخذ به من رأى أبي مسلم ، فكتب إلى أخيه أبي جعفر يأمره بنقض الصلح ، وبقتل ابن هبيرة . ولكن أبا جعفر رأى في ذلك خلاف ما تم عليه الاتفاق أولاً ، وخشى أن يرمى بالغدر ونقض العهود ، ويظهر أمام الناس جميعاً بمظهر الناكث الذي لا عهد له . فراجع الخليفة في ذلك ، والخليفة مصر على رأيه في القتل ، وهو الرأى الذي ارتآه أبو مسلم .

وأذن أبو جعفر لرأى أخيه أبى العباس بعد أخذ ورد ومراجعة .
 وكان آخر كتاب بعثه السفاح إلى أخيه يقول فيه : (اقتله لا محالة)
 فلم يجد أبو جعفر مفرّاً من تنفيذ أمر كان هو على خلاف الرأى فيه .
 ولا شك أن الدور الذى لعبه أبو مسلم هذه المرة يدل على مبلغ
 دهائه ، فقد استطاع بمشورته على السفاح بقتل ابن هبيرة أن يصور
 جعفر - وهو الذى أعطى عهد المصالحة والأمان - بصورة الغادر ،
 ويظهره بمظهر الناقض للعهود .
 وأسر أبو جعفر فى نفسه هذه الفعلة لأبى مسلم الخراسانى ، كما
 أسر ما قبلها من أسباب النفور . .

مقابلة الثورات بالسلاح

نحن الآن في المدينة الهاشمية بالكوفة حيث قصر الإمارة الذي اتخذته أبو العباس السفاح مقرّاً لخلافته . وقد استراح السفاح بعد مقتل الخليفة الأموي مروان ، ولكنه لم يظل على الكرسي هادئاً دقيقة واحدة . لقد كان التفكير في دولته الجديدة الناشئة وفي الساخطين عليها ، والمتربصين بها يؤرقه إذا نام ، ويشغل باله إذا صحا . .

مسكين هذا الخليفة الحديد الذي اتسع عليه باب الخلاف من ناحية ، وانفتح أمامه باب بل أبواب كثيرة للخروج عن سلطانه . فهؤلاء أهل مدينة قنسرين خلعوا السواد شعار العباسيين ولبسوا البياض شعار الأمويين ، وخلع أميرها السفاح ووافق أهله على هذا الخلع . وأهل البلقاء كذلك . حتى مدينة دمشق نهض أهلها مع رجل اسمه « عثمان بن سراقه » فثاروا على الدولة الجديدة ، وخلعوا السفاح ، ولبسوا البياض . أما أهل الجزيرة فقد قلدوا أهل قنسرين فيما فعلوه من خلع الخليفة أبي العباس ، وثاروا على رجاله وعلى نائب حران من جهة السفاح ولبسوا البياض أيضاً .

وخشى السفاح من هذه النكسة السريعة المفاجئة التي أصابت

الدعوة العباسية ، ووطد العزم على أن يقابلها بالشدة التي تكبح جماحها ، وتمنع حرانها .

وخشى السفاح أن يكون وزيره أبو سلمة الخلال من الممالئين عليه المدبرين المكاييد في السر له ، وخاصة بعد موقفه الذي أشرنا إليه قبلا ، وهو محاولة أن يصرف الخلافة عن البيت العباسي إلى بيت أبي طالب . وكان السفاح بعد أن بايعه أبو سلمة الخلال مرغماً مع المبايعين على حذر شديد منه ، وتيقظ تام لحركاته ، حتى كان يعد عليه أنفاسه . . .

ولقد تسرب الشك إلى قلب السفاح ، وخاف أن يكون موقف « الخلال » بممالأة من أبي مسلم الخراساني وبتهريض منه . وأراد أن يستوثق من ذلك ، فكان ما كان من أمر رحلة أبي جعفر المنصور إلى أبي مسلم ، ليعرف حقيقة الأمر . وقد تعهد أبو مسلم حينذاك بأن يكفى العباسيين شر أبي سلمة الخلال . أو بعبارة أخرى تعهد بأن يتخلص منه بالقتل حتى يسد على الدولة العباسية باب الشر من ناحيته . .

ولم ينس أبو مسلم الخراساني ما تعهد به . . فبينما الخليفة السفاح في قصر الإمارة يسمر مع بطانته وفيهم وزيره أبو سلمة الخلال ، إذا بفتى شديد العضلات ، قوى البناء اسمه « مرار » يفد إلى باب القصر منتظراً متربصاً في ظلام الليل بمنأى عن الأنوار التي كانت تموج بها رحبات قصر الإمارة من الداخل . فلما انفض السمار والسمامر خرج

كل إلى منزله ، وإذا بالفتى « مرار » ينقض على أبي سلمة الخلال فيقتله ..

وسرعان ما شاعت الأقوال في رحاب الكوفة الهاشمية بأن الخوارج هم الذين قتلوا وزير السفاح .

ولم يكتف أبو مسلم بهذا التدبير الذى تخلص به من منافس خطير ، بل أخذ يتعقب أصحاب أبي سلمة الخلال فيما وراء العراق ، ثم أرسل إلى فارس أحد قواد العباسيين واسمه محمد بن الأشعث ، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة الخلال وأتباعه وأنصاره فيضرب أعناقهم .

ونفذ القائد فعلا ما أمره به الداهية الخطير .

والحق أن الوزير أبا سلمة الخلال ذهب دمه شفاء لأحقاد أبي مسلم الخراسانى ودسائسه . فقد كان الخلال رجلا وقور الطلعة ، حسن الهيئة ، كثير الفضل ، حسن المفاكهة ، حلوا المسامرة ، لطيف المخاضرة ، وكان السفاح يأنس به ويميل إليه ، ولكنه توهم فيه الميل إلى آل على بن أبى طالب ، وجسم أبو مسلم الخراسانى هذا الوهم فى نفس السفاح ، وصوره عند الخليفة العباسى وعند أخيه أبى جعفر المنصور بصورة الممالئ الخطير ، وأباح لنفسه أن يسلط عليه من يقتله وهو خارج من قصر الخلافة . بعد سمر سعيد ، حيث لم يكن يخطر على باله هذا المصراع الشنيع ..

ولم تكن هذه الشدة التى تبدو من أبى مسلم الخراسانى ، وهذه

القسوة البالغة في الطبع جديدة عليه ، فإن خراسان لم تدعن له إلا بعد أن جرد لها السيف على حديه . . وكل بلاد فارس لم تخضع له إلا بالرهبة له والهيبة منه .

ولما كثرت الخلافات والخروج على العباسيين وعلى السفاح في أوائل عهده لم يكن هناك من علاج إلا شفرات السلاح . حتى أنه لم يرحم في ذلك قريباً ولا ذا صلة . فقد خرج عليه في سنة ١٣٣ هـ ببخارى « شريك ابن شيخ المهزرى » وكان رجلاً قوى الحجّة ، قوى الأنصار معاً ، وأنكر على أبى مسلم قسوته في الدعوة العباسية والبيعة لهم والمدافعة دونهم ، وقال فيما قال :

— ما على هذا بايعنا آل محمد — أى العباسيين — على سفك الدماء وقتل الأنفس ؟

وقام « شريك » وقام معه أكثر من ثلاثين ألفاً ، ولكن أباً مسلم لم يبال بهذه الحملات ، فقد تمرس بها ، واعتادها . وأرسل إلى الثائر البخارى جيشاً قوياً على رأسه « زياد بن صالح الخزاعى » فقاتله وقتله . ولم يهدأ أبو مسلم الخراسانى لحظة واحدة في تلك البلاد المترامية الأطراف ، فهو لا يكاد يسد باباً للشمر هنا إلا انفتحت عليه هناك للشمر أبواب . حتى رجاله الذين كان يبعث بهم لقتال العصاة ، كثيراً ما خرجوا عليه ، وثاروا ضده ، طمعاً منهم في أن تكون تلك الأرض البعيدة لهم .

أبو مسلم الخراسانى

فهذا قائده زياد بن صالح الخزاعي ، لم يكد ينتصر على الثائر « شريك » ويقتله ، حتى حدثته نفسه هو بالثورة على أبي مسلم وعلى العباسيين . . وفعلًا خرج على أبي مسلم من وراء نهر بلخ ، فلم يجد داهية بنى العباس من وسيلة إلا أن يجمع ثورته بنفسه ، فذهب إليه في جيش قوى ، وبدد شمله ، وفرق عسكره ، وانتهى به الأمر إلى أن استقامت له الأمور في تلك النواحي .

وقد سبق انتصاره على « زياد » غزوتان كبيرتان وسع بهما رقعة الدولة العباسية شرقاً إلى أواسط آسيا ، أما الغزوة الأولى فقد تولاها هو بنفسه إلى بلاد الصغد ، وأما الغزوة الثانية فقد كاف بها « أبا داود » أحد نوابه ، وأمره أن يذهب إلى بلاد « هندوكش » ، فذهب الرجل إليها ، وأوغل فيها ، وغنم من الأواني الصينية الجميلة المنقوشة بالذهب شيئاً كثيراً جداً . . وعاد بكل ما حملة من المغنم إلى أبي مسلم وهو بمدينة سمرقند . ثم أخذ يفض الأحمال ، ويخفف الأثقال ، ويعرض أمام أبي مسلم من الذخائر والطرف ما لم تر العيون مثله . فهذه أوعية مطعمة بالذهب النضار ، وهذه سروج من خالص العقيان ، وتلك أمتعة من فاخر الديباج ، في ألوان تبهر الأنظار ، وبريق يكاد يخطف الأبصار .

العداوة بين رجلين . . .

كانت السنوات الأربع تمر تباعاً منذ مبايعة الناس لأبي العباس السفاح بالخلافة سنة ١٣٢ هـ ، وكانت الأحداث تتوالى على الدولة الجديدة بخيرها وشرها . وكان الناس في شغل شاغل ، بعضهم يبنى للدولة ، وبعضهم يسعى لهدمها . وبعضهم واقف يترصد حتى إذا أمكنته فرصة للوثوب وثب ، أو للثورة ثار .

ونحن الآن لا يعنيننا أمر الأحداث في مجموعها قدر ما يعنيننا أمر أبي مسلم الخراساني . فنحن معه - وحده - في هذا الكتاب على ميعاد . . .

لقد دخلت سنة ١٣٦ هـ وأبو مسلم في شغل شاغل بخراسان وما وراء خراسان عن لقاء الخليفة أبي العباس . وأبو العباس لا يريد أن يشق عليه بتكليفه القدوم إليه ، بل يكتفي بأن يبعث له أخاه أبا جعفر المنصور - كما سبق القول - وإن كانت مهمة المنصور للاستطلاع والتعرف ، لا للمجاملة والتودد .

والآن وقد هدأت الأحوال في أطراف الدولة العباسية ، واستقر السلطان لبني العباس ، فإن أبسط الواجبات يقضى على أبي مسلم أن يخف

إلى لقاء مولاه وخليفته أبي العباس السفاح .

لقد كتب إلى الخليفة يستأذنه في القدوم عليه ! وأيقن الخليفة أن هذا الرجل الداهية لا يتحرك وحده ، ولا في قلة من بطانته ، وإنما تنتفض حوله أجنحة جيوشه التي دوخ بها إقليم خراسان . فكتب إليه الخليفة أن يقدم فقط في خمسمائة من الجند ! ولكن أبا مسلم الداهية الحبيث يكتب إلى الخليفة مستقلاً هذا العدد الذي حدده السفاح ويقول في كتابه :

— إني قد وترت الناس ، وإني أخشى من قلة الخمسمائة !

فيرد عليه السفاح آذناً له في أن يقدم عليه في ألف من رجاله لا يزيد !

ولكن أبا مسلم لم يكن آمناً وهو في إقليم خراسان بعيداً عن قصر الخلافة ، ومقر الإمارة ، فكيف يأمن وهو مقبل بشخصه ، وقادم بنفسه ؟ ؟

لقد جاء الرجل ومعه ثمانية آلاف ! كأنما جاء ليفتح بلداً لا ليقابل خليفة ، ويقدم له فروض الطاعة والولاء . .

وفرق الرجل الداهية من معه من الجنود الثمانية الآلاف ، حتى لا يعرف رجال الخليفة عددهم بالضبط ! وأوصاهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متفرقة لا من باب واحد . . وحمل معه كثيراً من الأموال العظيمة ، والتحف النادرة ، والهدايا الثمينة .

ودخل أبو مسلم الكوفة الهاشمية بألف فقط من الرجال كما كتب إليه السفاح . وأمر الخليفة قواده ورجال بطانته وسائر الناس أن يخرجوا ظاهر البلد ليستقبلوه . وخرج هؤلاء جميعاً إلى مسافات بعيدة من أرباض الكوفة ليتلقوا ضيف أمير المؤمنين .

ولما دخل على السفاح أحسن لقاءه ، وبالع في الحفاوة به ، والهاشمة لمقدمه ، وأكرمه وأعظمه ، وأنزله من مجلسه في حضرة الخلافة منزلاً دانياً ، ومكاناً قريباً . وأذن له أن يأتي إلى قصر الخلافة كل يوم .

وفي يوم من الأيام التي أقامها أبو مسلم الخراساني في بلاط السفاح ، استأنس من الخليفة فرصة ليستأذنه في الخروج إلى حج بيت الله الحرام ، وكان قصد الخراساني من ذلك أن يظفر بإمارة الحج هذا العام ، فليس هناك من هو أولى منه بالتقدم عليه من دعاة بني العباس . ولا شك أن في إمارته للحج تقوية لمركزه ، وتوطيداً لنفوذه ، ومزيداً من الجاه له عند الناس . وأدرك السفاح قصده فأراد أن يفوته عليه ، قائلاً :

— يسرنى أن ييسرك الله إلى أداء الفريضة وإحياء المشاعر . ولولا أنني عينت أخي أبا جعفر — قبل أن تستأذن مني — لإمارة الحج هذا العام لعينتك أميراً .

وبالطبع كان تعيين المنصور لإمارة الحج في العام الذي سيخرج فيه الداهية أبو مسلم لأداء الفريضة سبباً لإشغال ما بين الرجلين . . فقد اعتقد أبو مسلم أن ذلك إنما جاء بسعي أبي جعفر وبتدبيره ، فحقدها

عليه . وكانت الأحداث اليومية العادية تزيد من أسباب النفور بين الرجلين . ففي يوم من الأيام دخل أبو مسلم قصر الخلافة على أبي العباس السفاح ، وكان أبو جعفر المنصور حاضراً في المجلس . فسلم أبو مسلم على الخليفة ولم يسلم على أبي جعفر . وعلله لم يلاحظه رهباً من المجلس ، أو لعله لاحظ حضوره وتعمد إغفاله . وقصد ترك السلام عليه . وكانت في أبي مسلم غطرسة شديدة ، وكبرياء أعانه عليها قوة مركزه ، وشدة بأسه ، وأياديه التي أسداها إلى الدولة العباسية ، فهي مدينة له بتثبيت قواعدها ، واستقرار الأمور لها وخاصة في أقاليم خراسان .

وأراد أبو العباس السفاح أن لا تفوته هذه الإغفالة من أبي مسلم الخراساني لمكان أخيه المنصور ، فنبهه إلى ذلك في المجلس أمام المنصور فما كان أسرع جواب أبي مسلم قائلاً :

— إنى قد رأيته ! ولكن هذا مقام لا يقضى فيه حق غيرك !

وهكذا تخلص أبو مسلم من الورطة التي أوقعه فيها السفاح بإرضائه وبإفراده هو وحده بحق السلام والاحترام ، ولكنه لا شك كان يعلم أن هذا الرد على ما فيه من حسن التخلص بإرضاء الخليفة يحز في نفس أبي جعفر ، فلا ينساها أبداً للداهية العنيد أبي مسلم . . .

وبدأت مراحل الغيظ والحقد تغلي في صدر أبي جعفر المنصور وكان شبح الخراساني يؤرقه ، ويود لو خلت الدنيا منه بأية سبيل .

وذات يوم دخل المنصور على أخيه الخليفة أبي العباس يشيم منه فرصة للتحدث معه في أمر أبي مسلم . وفيما يدور الحديث إلا في الخلاص من هذا الخصم اللدود ؟ واستأنس الرجل من أخيه فرصة لمصارحته بالأمر قائلاً :

— يا أمير المؤمنين ! إنني خارج إلى بيت الله هذا العام كما شرفتنى بالإنباء عنك وإمارة الحج . وهي فرصة أرجو أن يزيد الله بها تمكين القلوب حولك ، وإجماع الرأي عليك . ولكنني سمعت همساً يدور في أنحاء « الأنبار » أن أبا مسلم غاضب لأنك شرفتنى بتقديمي عليه في إمارة الحج . وهو بهذا يستقل سلطانك ، ويجهل قدرتك ، ويجهد أياديك . وقد نفخ الغرور الرجل ، حتى أدركه كل من في بابك ! وإنني لألح في رأسه غدره . فهلا أرحت نفسك وأرحت الدولة منه بالقتل ؟ فأطرق السفاح ملياً ، ثم قال :

— يا عبد الله ! كيف أجروء على ذلك ، وللرجل يد سلفت ، وحرمة وجبت ، فقد علمت بلاءه معنا ، وخدمته لنا .
وكان أبا جعفر استكثر على أبي مسلم هذه الشهادة من فم الخليفة فقال :

— يا أمير المؤمنين ! إنما ذلك بدولتنا ، ما في ذلك لأحد فضل . والله لو أرسلت سنوراً (قطة) لسمعوا لها وأطاعوا .
— وبأى ذنب أقتله يا عبد الله ، والرجل إلى الآن لم يبد منه ما يدل

على الغش لنا ، والغدر بنا ؟

— يا أمير المؤمنين ! إنك إن لم تتعش به تغدى هو بك !

وسكت أبو جعفر عند هذا الحد من الإغراء والتحريض ، وأطرق السفاح لحظة كأنما يسوغ لنفسه فعل ما يقترحه عليه أخوه المنصور .
وفجأة رفع رأسه بالسؤال التالى :

— ولكن ! كيف السبيل إلى ذلك ، وكيف تم الخطة التى تتدبرها

للخلاص منه ؟

— الأمر أهون يا مولاي من إطالة التفكير فيه ! إذا دخل عليك

فاستقبله كما هى عادتك معه ، وأقبل عليه ، وحادثه كما تحادثه كل يوم حين يدخل عليك . فلا يشعر شيئاً ، ولا يستريب فى أمر . ثم أجيء أنا فأدخل الباب عليك وآتى من ورائه فأضربه بسيفي . . .

وتنبه الخليفة هنيهة ، واستدرك قائلاً :

— ولكن كيف بمن معه من صحابته وبطانته ؟

فأجاب أبو جعفر على الفور :

— هم أذل وأقل . . .

فسكت السفاح ، ولم يكن سكوته إلا علامة الرضى عما اقترحه

المنصور .

وجاء اليوم المحدد لتنفيذ خطة القتل والخلاص من أبى مسلم .

ودخل الرجل على الخليفة ، فلما رآه أقبل عليه كعادته . وهنا تحركت

في نفسه خواطر : كيف يقتل رجلاً أحسن إلى الدولة ووطد سلطانها ،
وشارك مخلصاً في تأسيسها ؟ وكيف يستبيح لنفسه أن يحمل دم رجل
لم يرتكب ما يستحق عليه أن يسفك دمه ؟

وبدا على وجهه أنه مضطرب النفس ، فبعث في الحال إلى خادمه
الخاص ، وهمس في أذنه هذه الكلمات :

— إذهب إلى أخي أبي جعفر في الحجرة المجاورة ، فقل له : إن
الذي بينك وبين أمير المؤمنين قد ندم عليه ، فلا تفعله !

وذهب الخادم بالطبع وهو لا يدري شيئاً عما كان بين الخليفة وأخيه .
لأن السر كان بينهما فقط . وما كان أشد دهشة الخادم وفزعه حين دخل
على المنصور الحجرة التي عينها له الخليفة ، فإذا به يراه محتبياً السيف ،
وهو على تمام الأهبة ، متهيئ لما يريد من قتل أبي مسلم . فلما نهأه
الخادم عن تنفيذ الذي كان بين السيدين غضب غضباً شديداً .

وهكذا شاء الله للرجل الداهية أن يفلت من القتل هذا اليوم ،
بعد أن لم يكن بينه وبين المنية إلا مثل لمح البصر . ولكن القدر أنجاه
اليوم من هذا المصير العاجل إلى مصيره المحتوم عما قريب .

أمير الحج . .

في أخريات سنة ١٣٦ هـ كان الطريق إلى بيت الله الحرام بمكة عامراً بالآتين من كل فج عميق ، وهم راجلون أو راكبون على كل ضامر ، وقد اتجهت قلوبهم إلى الله ، وخلفوا وراءهم ما كانوا يتعلقون به من شهوات الدنيا ومطامعها ، ليذكروا اسم الله في بيته العتيق ، وقد تجردوا مما يشغل الخاطر ، ويقلق النفوس .

وكانت أباطح الطريق وشعابه إلى بيت الله تسيل بموكب أبي جعفر المنصور أخى الخليفة أبى العباس السفاح وأمير الحج لهذا العام نيابة عن أخيه . وكان الطريق نفسه يسيل ركب أبى مسلم الخراسانى الذى أذن له السفاح فى الحج هذا العام ولكن غير أمير . .

واحتمل أبو مسلم الخراسانى هذه الفعلة التى فعلها معه أبو جعفر بموافقة السفاح ، وصمم على أن يكون مظهره فى موسم الحج أكثر وجاهة ، وأعظم فخامة من مظهر المنصور نائب الخليفة . وهذا بالطبع لن يكلفه كثيراً ، فالمال وافر عنده ، والعطايا جزيلة معه ، والهدايا جليلة بين يديه . وهو فوق هذا رجل مسماح معطاء ، لا يبخل ولا يضمن ولا يحرص على المال كما يحرص عليه أبو جعفر المنصور .

وكان أبو جعفر يحمل بالطبع معه كثيراً من المال ليفرقه على فقراء الحجاز باسم الخلافة العباسية ، تألفاً لقلوبهم ، واجتذاباً لولائهم . ولكن حرص أبي جعفر في الإنفاق كان دائماً مضرب الأمثال . فأخذ أبو مسلم ينفق عن سخاء ، ويفرق الأموال عن سعة ، ويهب العطايا عن تألف ، ويكسو الأعراب عن سماح ، حتى كانت نفوس الناس دائماً في الموسم تهفو إلى مضارب خيامه . ولا غرو في ذلك فالشاعر يقول :

والمورد العذب كثير الزحام .

وانتهى موسم الحج ، وفرغ الناس من إقامة مناسكهم ومشاعرهم ، وأخذ كل إنسان يتهيأ للعودة إلى بلده ، بعد أن أدى الفريضة ، وتقرب إلى الله بالطاعة ، وعاد ركب أبي جعفر إلى الأنبار ، وفي الطريق نفسه عاد أبو مسلم الخراساني بمن في ركابه من الصحاب والأتباع .

كان أبو جعفر متقدماً في ركبه على ركب أبي مسلم ، وبينهما طبعاً على طول الطريق مدى بعيد . فلما بلغ الركب « ذات عرق » جاء الخبر إلى أبي جعفر يعلمه بموت أخيه أبي العباس السفاح ، وانتقال الخلافة إليه ، بعد أن كتب له السفاح كتاباً بولايته عهد المسلمين من بعده .

فتوقف ركب أبي جعفر بعض الوقت ، وكتب إلى أبي مسلم — وكان وراءه على الطريق ببعض المراحل — يستعجله في القدوم عليه ، قائلاً من من كتاب له :

— قد حدث أمر ! فالعجل ! العجل !

ولم يكن أبو مسلم الخراساني يعلم الذي حدث ، فلما استعلم الخبر ، عجل السير وراء المنصور حتى يدركه في الطريق .

وأخذت نجائب الركب تسرع بأبي مسلم ، حتى بلغ ركب الخليفة الحديد أبي جعفر المنصور ، فلما جلس ، ألقى كتاب المنصور بين يديه ، وبكى ، وأخذ يردد قوله تعالى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم رفع رأسه لينظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعاً شديداً . فقال له :

— يا أمير المؤمنين ! ما هذا الجزع ؟ وقد أئتت الخلافة ؟ قال :

— هي عبء انضاف على كاهلي وكنت منه خالياً ، وكان السفاح يكفيننا إياه . . .

فأجابه أبو مسلم :

— وم تتخوف وقد صفت لك الأمور ؟

— أتخوف يا أبا مسلم شر عمي عبد الله بن علي بن عباس ، وشيعة علي بن أبي طالب . . .

— لا تخفه يا أمير المؤمنين ! فأنا أكفيكه إن شاء الله ! وإنما عامة جنده ومن معه هم أهل خراسان ، وهم لا يعصونني . . .

لقد أفصح أبو جعفر المنصور لغريمه أبي مسلم الخراساني عن اثنين من خصومه الذين يخشى بأسهم . ولكنه كان يكتّم في قرارة نفسه خوفه من أبي مسلم نفسه ، فهو يأتى في أول قائمة الخصوم الذين يحسب حسابهم . . .

العم الخارج

لم يكن أبو جعفر المنصور واهماً في تخوفه من خروج عمه عبد الله ابن عباس عليه . فإنه ما كاد يرجع من الحج بعد موت أخيه السفاح حتى دخل الكوفة فخطب بأهلها خطبة الجمعة وأمهم في الصلاة . فكان ذلك مبايعة من أهلها له . ثم ارتحل إلى الأنبار ، فانعقدت له فيها البيعة . وكذلك كان الحال في العراق وخراسان وسائر البلاد ، إلا الشام ، فلمن عمه عبد الله بن علي لما علم من كتاب المنصور إليه بوفاة السفاح ، قام في الناس خطيباً ، فذكر لهم أنه أحق بالخلافة من ابن أخيه ، لأن السفاح كان عهد إليه بالخلافة من بعده إذا انتصر على مروان آخر خلفاء بني أمية . أما وقد تم النصر له فقد وجب له العهد دون أبي جعفر . ووجد عبد الله بن علي من بعض أمراء العراق من يشهد له بذلك أمام الناس ، فنهضوا إليه وبايعوه . ومن هنا انفتح باب جديد للشر على أبي جعفر المنصور في مستقبل عهده بالخلافة .

وأخذ أمر عبد الله بن علي بن عباس يزداد ، وشأنه يقوى ، وأتباعه يكثر ، حتى استطاع أن يسير إلى مدينة « حران » ، وكانت أحد معاقل المنصور ، فحاصرها أربعين ليلة كاملة ، حتى ضاق أهلها

بالحصار فسلمها نائب الخليفة إلى عبد الله .

وكان سقوط حران ومقتل نائبها من ناحية أبي جعفر من أشد الأنباء هولا عليه ، وتأثيراً في نفسه . ولم يجد لهذه النازلة الجسيمة غير أبي مسلم الخراساني ، يفك عقابها ، ويصلح أحوالها . فبعث به لمقاتلته ومعه جماعة من الأمراء . واستطاع عبد الله أن يتحصن بمدينة حران ، وأن يخترن فيها من الطعام والأسلحة شيئاً كثيراً جداً مما يكفي لمقاومة أى مهاجم وصد أى محارب .

وجرت بعد ذلك أحداث ترك بعدها عبد الله مدينة حران وأقبل على مدينة نصيبين ، وخندق فيها . وأقبل أبو مسلم الخراساني يتبعه . ولكنه لم يتعرض له بقتال ، وكتب إليه يقول : إني لم أؤمر بقتالك ، وإنما بعثني أمير المؤمنين والياً على الشام ، فأنا أريدها .

وأراد أبو مسلم بذلك أن يصطنع المكيدة والمكر بعبد الله ، وأن يعزل عنه رجاله حتى يتمكن منه . ولكن الظروف اضطرتة إلى إعلان الحرب ، فحارب جيوش عبد الله خمسة أشهر . وكان على خيل عبد الله ابن علي بن عباس أخوه عبد الصمد بن علي ، وعلى ميمته بكار بن مسلم ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد . أما جيش أبي مسلم فكان على ميمته الحسن بن قحطبة ، وعلى ميسرته أبو نصر خازم بن خزيمة . وما هي إلا أن دوى نفير الحرب ، وبدأت الموقعة حتى حمل أصحاب عبد الله على معسكر أبي مسلم الخراساني حملة شديدة ، فأزالوهم عن

مواضعهم ، ورجعوا إلى مراكزهم الأولى .
ثم حمل عليهم عبد الصمد بن علي - عم الخليفة المنصور وأخو
عبد الله - حملة صادقة في خيل مجردة ، فقتل منهم ثمانية عشر رجلا
ورجع إلى مكانه بين أصحابه .
ثم تجمعوا وحملوا بجمعهم ثانية على أصحاب أبي مسلم ، فزلزلوا
صفوفهم ، وزحزحوهم عن أماكنهم ، وجالوا في المعركة جولة صادقة ،
فقتل منهم كثير .

وكانت هذا المعركة من أشد ما لاقاه أبو مسلم الخراساني في سلسلة
حروبه في سبيل الدعوة العباسية . وقد أخذ أصحابه يتراجعون منهزمين من
شدة الطعن فيهم ، وصدق الحملة عليهم . ونصح به بعض رجاله قائلا :
- لو حولت دابتك إلى هذا التل المرتفع ليراك الناس فيرجعوا ،
فإنهم قد انهزموا !
فكان جوابه :

- إن أهل الحجى لا يعطفون دوابهم على هذه الحال . ثم أمر
منادياً فنادى الناس قائلا :

يا أهل خراسان ! ارجعوا فإن العاقبة لمن اتقى ورجع .
وأخذ أبو مسلم يدعو جنده إلى الصبر على القتال ، وضرب هولهم
المثل في ذلك ، وصار يرتجز :
من كان ينوى أهله فلا رجع فر من الموت وفي الموت وقع !

فكان أصحابه يسمعون ذلك منه فتأخذهم الصيحة ، فيندفعون إلى الموت لا يباليون . وصمم الرجل العنيد أبو مسلم الذى لم يخسر إلى اليوم معركة أن يحول الجولة الأخيرة فى الميدان ليكسب الموقعة من خصمه ، والتجأ إلى سلاح المكر والدهاء كما كانت تلك عاداته دائماً . واتخذ له صميم المعركة عريشاً مرتفعاً يجلس عليه إذا التقت الجموع ، ليستطيع أن يشرف على أرض المعركة كلها ، وأن يسد الخلل فى صفوف جيشه . وأن يوجه فرق الجيش إلى الأماكن والمواقف التى تحميمهم

واستطاع أبو مسلم بسلاح المكيدة والمكر أن يحول ميمنة جيشه إلى الميسرة حتى ينشغل العدو بذلك الوضع فيتحولوا بميسرتهم إلى ميمنتهم لتتبادل الفرقتان المتقابلتان . ولكنه كان محتاطاً لذلك ، ومدبراً له أحكم التدبير . فأمر أهل القلب من جيشه ، فحملوا على من بقى من شجعان ميمنته على ميسرة أهل الشام وهم جنود عبد الله ، فحطموهم تحطياً . واستطاعوا أن يحددوا بجنود عبد الله وأن يطبقوا عليهم ، حتى لم يعد من الهزيمة بد

وانهزم فعلاً أصحاب عم الخليفة المنصور ، وفقد عبد الله صواب الرأى من نفسه فلجأ إلى أحد رجاله وقواده وهو ابن سراقه الأزدي يستشيريه فيما يجب أن يكون عليه الرأى قائلاً :

— يا ابن سراقه ! ماذا ترى فيما نحن فيه ؟

— الرأى يا مولاي أن تصبر وتقاتل حتى تموت .

- ولكن الفرصة الآن ممكنة لخلاصنا مما نحن فيه
- كيف الخلاص يا مولاي وقد انفض الرجال من حولك ؟
- إن الفرار هو السبيل إلى النجاة . .
- ولم يكذب عبد الله بن علي يتم كلامه حتى قاطعه ابن سراقه قائلاً
في حدة تشوبها نغمة ساخرة :
- إن الفرار قبيح بمثلك ، وقد عبته على مروان الأموي يوم كنت
تقاتله .
- إذن أنا آتى العراق .
- أنا معك منهزماً ، لا فاراً . . .
- وهكذا ترك عبد الله ورجاله عسكرهم ، فاستولى عليه أبو مسلم
الخراساني ، واحتاز كل ما كان فيه من غنائم ومغانم .

موضع للاتهام

استراح أبو مسلم الخراساني من أهوال المعركة القاسية التي دارت بينه وبين عم الخليفة أبي جعفر في الشام ، وأخذ ينفض عن جسده غبارها . ثم جلس ذات مساء يكتب إلى المنصور كتاباً يعلمه نبأ الانتصار ويزف إليه بشرى هزيمة عدوه عبد الله بن علي ، ويصف له بعض الغنائم التي صارت إليه من معسكر عبد الله .

وعلى قدر ما فرح المنصور بهذا النبأ فإنه ازداد خشية من زيادة نفوذ أبي مسلم . واتساع سلطانه ، وكان حمده لله على خلاصه من عمه عبد الله لا يوازي ما يرجوه من الحمد حين يكفيه الله شر أبي مسلم عدوه القديم المبين .

وأراد المنصور أن يختبر نفسية أبي مسلم ، وأن يثيره حتى يسبر أغوار نفسه ، ويقف على ما يدور بخاطره ، فبعث إليه أحد مواليه الأذنين : « أبا الحصيب يقطين » ليحتاط على ما أصابه أبو مسلم ورجاله من الأموال ونفائس الذخائر ، وثمين الجواهر . وغير ذلك مما صار مغنماً في يد أبي مسلم

فلما بلغ أبو الحصيب مقام أبي مسلم ، وأنهى إليه رسالة أمير

المؤمنين ، وأعلمه بمهمته ، لم يملك صاحبنا نفسه من الغضب ، فثار ثورة شديدة لم يستطع كتمانها وهو الداهية الأريب ، وأخذ يفوه بكلمات فيها شتائم للخليفة المنصور ، وفيها من مر الكلام ما لا يليق صدوره من رجل مثله في حق خليفة تدين له دنيا الإسلام بالطاعة والولاء .

ولم يسلم حتى أبو الحصيب من رشاش هذه الثورة الجاحمة ، وكاد أبو مسلم يهيم بقتله وهو لا ذنب له ، لولا أن نبهه بعض من شهد المجلس قائلاً إنه رسول ، والله تعالى يقول : «ما على الرسول إلا البلاغ» ، فتركه .

ورجع أبو الحصيب إلى أبي جعفر يجرر أذيال الخيبة والحزن ، وقص على الخليفة كل ما جرى من أبي مسلم ، وكل ما بدر منه من كلام حتى جاشت نفس المنصور ، وغضب غضباً شديداً لم يستطع كتمانها أمام من كان في مجلسه ، وكان فيهم أبو أيوب كاتب رسائل المنصور وأحد ثقاته . فاستأذن من الخليفة في الكلام قائلاً :

— مولاي ! لقد أطلت حلمك على هذا اللئيم ، حتى تطاول في غيه وضلاله وسفهه . ألم أقل لك يا مولاي قبل ذلك أن الحسن بن قحطبة كتب إلى يخبرني بموقف هذا الوغد منك حين تأتيه رسائله ؟

إنه إذا جاء كتاب منك يا مولاي — والعهد على الراوى — بدأ يقرؤه ثم أخذ يلوى شذقيه ، ويمط شفثيه استهزاء ، ويرمى بالكتاب إلى صديقه أبي نصر — مالك بن الهيثم — ويغرقان في الضحك ، سخرية منهما . ثم لا يستحيان أن يفعلوا ذلك أمام بعض الحضور ، حتى ضاق

الحسن بن قحطبة بما رأى منه ومن صاحبه فكان يبعث إلى بما يراه .
ولما كنت أعرف ذلك يا مولاي عن أبي مسلم ، مما لا أحتاج منه إلى
شهادة شاهد ، كتبت إلى الحسن بن قحطبة أخبره أن تهمة أبي مسلم
عندنا أظهر من هذا .

وهنا أجاب الخليفة أبو جعفر ، بعد أن كان يستمع إلى كلام
أبي أيوب كلمة كلمة :
— أهكذا فعل أبو مسلم ؟ إن لي معه لشأنًا . . .

وانفض المجلس وفي نفس الخليفة من أبي مسلم الخراساني ما فيها
من السخط عليه ، والتربص به . ولكنه كان يخشى أن يذهب أبو مسلم
إلى خراسان ، خارجاً عن طاعته ، ناوياً معصيته ، فيشق عليه بعد ذلك
تحصيل ما بيديه من غنائم جيش عبد الله بن علي أولاً ، وأن تحدث
حوادث هو أولى بتفاديهما الآن ثانياً . فكتب إلى أبي مسلم كتاباً ،
وبعث به إليه مع مولاه ورسوله الأول : « أبي الحصيب يقطن » .
وكان مما جاء في كتابه :

— إني وليتك الشام ومصر ، وهما خير من خراسان . فابعث إلى
مصر من تشاء من رجالك نيابة عنك ، وأقم بالشام لتكون قريباً مني ،
فإذا أردت لقاءك أتينني من قريب ، وبهذا أجنبك مشقة الطريق . . .
وما كاد أبو مسلم يفرغ من قراءة كتاب المنصور إليه ، حتى عاد
إليه غضبه الذي بدا منه أولاً حين فوَّتح في أمر إحصاء الغنائم والاحتياط

عليها ، وعز عليه — وهو صاحب اليد الطولى فى تأسيس الدولة العباسية — أن يبلغ من نفس المنصور هذا المبلغ ، وينسى له قديم بلائه فى الدعوة . وكان مما نطق به فى فورة الغضب : — يولبنى الشام ومصر ، وينحبنى عن خراسان ، وهى لى وأنا صاحبها ؟ إننى ذاهب إلى خراسان ، فأنا وإليها ، وسأستخلف عنى من ينوب عنى فى ولاية مصر والشام . . !

وكتب الرسول « أبو الحبيب يقطين » إلى الخليفة المنصور بما قاله أبو مسلم . فقلق أبو جعفر لذلك قلقاً شديداً ، وأيقن أن باب الشر الذى كان يتوقاه ، قد انفتح أكثر من ذى قبل .

أما أبو مسلم فقد عقد العزم على الخلاف ، وصمم على ملء نفسه من عصيان المنصور والمخالفة عن أمره ، وخرج عن وجهه يريد خراسان ، لا يبغي بها بديلاً ، وليكن بعدها من الأحداث ما يكون .

وسار أبو مسلم فى طريقه إلى العودة إلى خراسان ، تاركاً الشام وراءه ، وبلغ أبا جعفر أمر مسيره ، فخرج بنفسه من الأنبار إلى المدائن ، فإن مثل هذه الحركة من أبى مسلم مما لا يحمل معها بقاء الخليفة فى الأنبار . وكتب إلى أبى مسلم كتاباً آخر بالمسير إليه . وبلغ كتاب أ. جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى وهو على نهر الزاب عازم على الدخول إلى خراسان ، فتوقف فى بعض مراحل الطريق ، وأمسك القلم وكتب إلى الخليفة المنصور الكتاب التالى :

— (إنه لم يبق لأمر المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا

نروى عن ملوك آل ساسان - يعنى ملوك الفرس - أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء . . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ، ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد ! حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ، ضمناً بنفسى عن مقامات الذل والهوان . . .)

ولم تكن هناك صراحة أكثر من هذه الصراحة فى مخاطبة الرؤساء والخلفاء ، ولم تكن هناك مصارحة بالتخوف والخشية أكثر من هذه المصارحة ، كما لم تكن عزة واعتداد بالنفس فى مكاتبة الملوك أكثر من هذا . فلما وصل الكتاب إلى جعفر المنصور . أملى كاتبه الرسالة الآتية : - (قد فهمت كتابك . وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الذين يغشون ملوكهم والذين يتمنون اضطراب جبل الدولة لكثرة جرائمهم وإنما راحتهم فى تبدد نظام الجماعة . فلم سويت نفسك بهم . وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليست مع الشريطة التى أوجبت منك سمع ولا طاعة . وقد حمل أمير المؤمنين ، عيسى بن موسى إليك رسالة ، ليسكن إليها قلبك إن أصغيت إليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك . فإنه لم يجد باباً يفسد به فيتكأوكد عنده من هذا ، ولا أقرب من الباب الذى فتحه عليك . . .)

وجاء الكتاب إلى أبي مسلم ، فلم يدع الفرصة تمر من غير أن يجيب عنه ، مشيراً إلى ما سلف من أياديه ، مذكراً بما فعله لتوطيد سلطان العباسيين ، « حتى عرفهم من كان يجهلهم ، وأطاعهم من كان عدوهم . . . »

وأخذ المنصور يحتال بكل ما في يديه من وسائل الخيل ليتألف قلب أبي مسلم ، وليثنيه عما عقد عزمه عليه ، بالكلام اللين تارة ، وبالتهديد تارة أخرى . وصار يبعث إليه الرسل والنواب والأمراء ، طوراً يلائمونه ، وطوراً يخاشنونهم ويخوفونه مغبة الخلاف ، وعاقبة العصيان . ثم أمر المنصور بعض أمراء العباسيين وفرسانهم أن يكتبوا إلى أبي مسلم ، يترضونه ، ويعظمون شأنه ، ويشنون على ما سلف من خدمته ، ويسألونه أن لا يفسد ما سبق من الطاعة بما لا يحمد من العصيان ، ويحذرونه عاقبة البغي ، ويأمرونه بالعودة إلى المنصور ، طاعة له ، واستجابة لأمره ، وتبجيلاً للخلافة ، وتقوية للجماعة .

ولم يكتف المنصور بذلك ، بل بعث كتاباً آخر - لعله كان آخر سهم في كنانته - مع رسول ممتاز معروف بالدهاء وحسن التلطف ، ولطف السفارة وقال للرسول :

- يا أبا حبيب ! كلم أبا مسلم بالين ما تكلم به أحداً ، واملأه بالأمانى وأعلمه أنى رافع قدره ، وصانع به ما لم يصنعه به أحد من علو المنزلة ، إن هو صلح ، وراجع ما أحب ، وجانب ما أكره . فإن أبي ،

فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : إنه برىء من العباس إن شققت العصا ، وذهبت على وجهك . ولم يطلبك بنفسه . ولو خضت البحر الحضم لحاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك .

وتوقف الخليفة المنصور لحظة عن الكلام ، ثم قال لرسوله أبي حميد :
— يا أبا حميد لا تقل له هذا التهديد الأخير حتى تيأس من رجوعه
بالتى هى أحسن .

وانفض مجلس المنصور ، وذهب الرسول فى طريقه إلى أبى مسلم ليبلغه رسالة أبى جعفر ، وكان بعض رسل المنصور وسفرائه قد بلغوا أبا مسلم فى مدينة « حلوان » — وهى مدينة بالفرس — فلما اجتمعوا لديه ، أخذوا يتحدثون فى أمر عودته ، وأكدوا له رضا المنصور عنه إن هو أطاع وأذعن ، ولأموه فيما هم بالإقدام عليه من منابذة أمير المؤمنين والخروج عن أمره . وفيما هم يتناولون الحديث ، إذا بالرسول أبى حميد يدخل . فدفع إلى أبى مسلم كتاب المنصور ، ثم أعقب هذه الحركة بقوله :

— يا أبا مسلم ! إن الناس يبالغونك عن أمير المؤمنين ما لم يقله ، وينقلون إليك خلاف ما عليه رأيهم فيك ، حسداً منهم وبغياً . يريدون إزالة النعمة ، وتغييرها . فلا تفسد ما كان منك ، ولا تشوه جمال ما سلف من صنعك . يا أبا مسلم ! إنك لم تزل أمير آل محمد ، يعرفك بذلك الناس ، لا ينكرون عليك شيئاً من هذا . وما ادخر الله لك من

الأجر عنده أعظم مما أنت فيه من دنياك . فلا تحبط أجرك ، ولا يستهوينك الشيطان !

فاستعظم أبو مسلم صدور هذه النصائح من أبي حميد ، ورفع رأسه إليه قائلا :

— متى كنت يا أبا حميد تكلمنى بهذا الكلام ؟

فأجاب أبو حميد :

— إنك دعوتنا إلى هذا الأمر ، وإلى طاعة أهل النبي عليه السلام من ولد العباس ، وأمرتنا بقتال من خالف ذلك . فدعوتنا من بلاد متفرقة ، ومن جهات مختلفة . فجمعنا الله على طاعتهم ، وألف ما بين قلوبنا ، وأعزنا بنصرنا لهم ، ولم نلق منهم رجلا إلا بما قذف الله في قلوبنا ، حتى أتيناهم في بلادهم ببصائر نافذة ، وطاعة خالصة . أفتريد حين بلغنا غاية منانا ، ومنتهى أملنا أن تفسد أمرنا ، وتفرق كلمتنا ؟ ألا تذكر يا أبا مسلم أنك قلت لنا فيما قلت : من خالفكم فاقتلوه . وإن خالفكم أنا فاقتلوني .

ولما فرغ أبو حميد من كلامه أقبل أبو مسلم على صاحبه أبي نصر مالك بن الهيثم فقال له :

— أما تسمع يا أبا نصر ما يقول لى هذا الرسول ؟ ليس هذا بكلامه

هو يا مالك !

قال مالك :

— لا يهولنك هذا منه يا أبا مسلم ! فلعمرى ما هذا كلامه كما ذكرت ، وإن ما وراء هذا لأشد منه ... ! فامض لأمرك ، ولا ترجع إليه ! فوالله لأن أتيت به ليقتلنك ، ولقد وقع في نفسه منك شيء لا يأمنك بعده أبداً . ولما فرغ أبو نصر من كلامه تكلم آخر من أصحاب أبي مسلم فقال :

— ما الذى يملكك على الذهاب إلى الأنبار ، فى مكان قلق الوساد ؟ فاذهب إلى الرى حيث تكون خراسان تحت حكمك ، وجنودها طوع أمرك . وبذا تكون فى عز ومنعة ، لا تنالك الأيدى بسوء .
ولما انتهى أصحاب أبي مسلم الخراساني من صرفه عن الرجوع إلى المنصور بدأ رسول الخليفة يهدد ويتوعد ، فما كان من أبي مسلم إلا أن وجه الكلام إلى رسل الخليفة جميعاً قائلاً :
— ارجعوا إلى صاحبكم ، فليست ألقاه !

وأخذ أبو مسلم يقلب الأمر على وجوهه ، لعله يجد مخرجاً مما هو فيه ، وأخيراً اهتدى إلى أن يبعث أحد ثقاته واسمه أبو إسحاق إلى المنصور ليعرف بنفسه رأيه فيه ، ويطمئن منه على موقفه من أبي مسلم . وسار أبو إسحاق إلى الأنبار ، وقابل أبا جعفر ، ولقى منه حفاوة بالغة ، وإكراماً عظيماً ، ووعدته بولاية العراق إن استطاع أن يرجع إلى أبي مسلم فيثنيه عن رأيه . . .

فلما رجع أبو إسحاق إلى أبي مسلم بدأه بالسؤال قائلاً :

— ما وراءك يا أبا إسحاق ؟

— رأيت بنى العباس جميعاً يعرفون فضلك ، ويعظمون قدرك .

— وما الذى رأيت من أبى جعفر المنصور نفسه ؟

— لم أر منه ما تخاف على نفسك فيه ، ولقد رأيت منه سعة الصدور

لك ورحابة البال دونك ، وهو ضمين لك بحسن العفو وجمال الرضى ،
بعد جميل الاعتذار منك ، فهلا انتهزت هذه الفرصة الكريمة من
أمير المؤمنين ؟

وأثر هذا الكلام الرقيق فى نفس أبى مسلم ، فاجتمع رأيه على
الاعتذار ، ونبذ المخالفة ، والرجوع إلى حظيرة الخليفة . ولكن « نيزك »
أحد قواده وثقاته نهاه عن ذلك ، فصمم على الذهاب ، مستسلماً للقضاء
متمثلاً بقول الشاعر :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقسام

ولما لم يجد « نيزك » مفرّاً من صرفه عن عزمه قال له :

— إذا كنت عزمت على الرجوع إلى المنصور فالله يخير لك .

ولكن احفظ عني واحدة ! إذا دخلت عليه فاقتله ، ثم بايع من شئت
من القوم فإن الناس لا يخالفونك .

مصرع الرجل . . .

ذهب أبو مسلم ينتحى من قصره مكاناً هادئاً قصياً ، وجلس يفكر في كتاب يبعث به إلى المنصور معتذراً ومخبراً بإياه بقدومه عليه . فلما فرغ من الكتاب أخذ يعد العدة للرجوع إلى الخليفة ، واستدعى إليه صاحبه الوفي مالك بن الهيثم وقال له :

— يا أبا نصر ! أنت خليفتي على العسكر هنا . فأقم حتى يأتيك كتابي . فإن أتاك مختوماً بنصف خاتمي فأنا كتبته ، وإن أتاك بخاتم كامل ، فاعلم أني لم أختمه .

ومضى أبو مسلم في طريقه المخوف الذي لم يدر ما خبأه له الغد فيه . ونغضى نحن إلى قصر الخلافة لئرى ما الذي حدث لكتاب أبي مسلم إلى الخليفة المنصور . لقد وصل هذا الكتاب إلى أبي جعفر المنصور فلما فرغ من قراءته قال :

— والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنه !

وكان أبو أيوب كاتب رسائل المنصور حاضراً ، فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ! وبات ليلته مؤرق الجفن لا يأتيه النوم ، وطال

تفكيره في هذه الواقعة ، وخاف إن دخل أبو مسلم خائفاً فربما يبدو منه شر إلى الخليفة ، والحكمة والمصلحة تقتضيان أن يدخل آمناً حتى يتمكن منه الخليفة .

وفكر أبو أيوب في وسيلة يدخل بها الطمأنينة والأمان على قلب أبي مسلم وهو في طريق عودته إلى الخليفة ، فبعث إليه في الطريق رجلاً يستأذنه في أن يوليه إحدى المدن في خراسان ، حتى يشعر أبو مسلم ويستوثق أن الخليفة لم يغير رأيه فيه . . .

وجاء الرجل إلى أبي مسلم وهو لا يزال في طريق عودته إلى المنصور وأبلغه أنه أت من طرف الخليفة ، وأن أمير المؤمنين في شوق إليه . . وأنه يستأذن في تعيينه حاكماً على مدينة « كسكر » !

وهنا انشرح صدر أبي مسلم واطمأن قلبه ، ولم يشك لحظة في رضا المنصور عنه ، وإعظامه له . ولم يعلم أن ذلك مكر منه وتغريب به . . وعجل أبو مسلم السير إلى المنصور ، وكأنه بذلك يستعجل أسباب منيته . . .

فلما قرب من المدائن أمر الخليفة أبو جعفر قواده وأمرأه أن يستقبلوه خارج البلد ، وأن يذهبوا جميعاً لتلقيه حتى لا يدخل في نفسه شيء من الريبة ، وحتى تؤكد له هذه الحفاوة المصطنعة رضا الخليفة منه بما يتقى به المكروه . . .

ودخل أبو مسلم على المنصور في مساء يوم ، وقد جنحت الشمس إلى

المغيب ، فأشار أبو أيوب على الخليفة أن يؤخر قتله تلك الليلة إلى الغد .
وبات أبو مسلم ليلته لا يريه شيء ، فلما كان الغد دخل على
المنصور فأظهر له الكرامة والتعظيم ، وأتقن التمثيل لهذا الدور الخطير
حتى تم الرواية فصولا . . .

واختار أبو جعفر لتنفيذ خطة مقتل أبي مسلم أحد أمرائه ممن يثق
فيه ، فاستدعاه قائلاً :

— كيف بلائي عندك ؟

— والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها !

— فكيف إذن لو أمرتك بقتل أبي مسلم ؟

فوجم الرجل ساعة ؛ لا يدرى ماذا يقول ، ولا بماذا يجيب ! فقال له
أبو أيوب كاتب الرسائل :

— مالك لا تتكلم ؟ ؟

فأجاب الرجل في صوت ضعيف خائف متردد : أقتله !

واختار المنصور أربعة من عيون الحرس وقال لهم :

— كونوا من وراء الرواق . فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه

فاقتلوه ! وبعث المنصور رسله إلى أبي مسلم ليحضر بين يدي الخليفة ،

وهو يبتسم ، لا يتوقع شراً ولا ينتظر غدرًا . فاما وقف بين يدي المنصور

أخذ يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة ، وأبو مسلم يعتذر من ذلك

كله ، ثم قال :

— يا أمير المؤمنين ! أرجو أن تكون نفسك قد طابت على !
— أما والله ما زادني هذا إلا غيظاً منك وحقداً عليك .

ثم ضرب المنصور بإحدى يديه على الأخرى مصففاً كما كانت الإشارة بينه وبين حراسه الأربعة . فخرج عثمان وأصحابه ، وضربوه بالسيوف حتى قتلوه ، وهو يصيح : العفو ! العفو !

ولم يملك المنصور نفسه حين سمع كلمة العفو تصدر من بين شفّتي الرجل الذي أرق نومه وأقضى مضجعه زماناً طويلاً — أن يتجه إليه وهو مخرج في الدماء قائلاً :

يا ابن أتطلب العفو ، والسيوف قد اعتورتك من كل جانب ؟

ثم أنشد البيتين الآتين :

زعمت أن الدين لا يقتضى فاستوف بالكيل أبا مجرم !
سقيت كأساً كنت تسقى بها أمراً في الحلق من العلقم !

وهكذا طويت صفحة الرجل الذي قامت على يديه الدولة العباسية ، فأمر المنصور أن تلف جثته في عباءة ، وأن يلقى به في نهر دجلة ، كما يلقى بالحجر الثقيل ، وكان هذا آخر العهد بأبي مسلم ، حيث طوته أمواج دجلة في سرّها الرهيب . . .